الدكتور عبد الله محمد سليمان هنداوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية – جامعة الازهر
فرع الزقازيق

مطابقة الجواب للسؤال في النظم القرآني

الطبعـة الأولى
١٤١٦هـ – ١٩٩٥م

مطبعة الأمانة
٣ ش جنينة بدران – شبرا مصر ت : [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وخاتم النبيين سيدنا محمد النبى العربى الأمين الذى أوتى جوامع الكلم فكان أفصح الناطقين ، وبعد ...

فهذا بحث علمى « حول مطابقة الجواب للسؤال فى النظم القرآنى » أردت منه أن يقف القارىء على الأسرار البلاغية لنظم كل منهما فى القرآن الكريم ، ومدى مطابقة الجواب للسؤال، فى اللفظ والمعنى ، ومطابقته له بحسب المقام ، فالمطابقة اللفظية بينهما تجىء على وجهين فى النظم القرآنى :

الوجه الأول : المطابقة بينهما بمعنى التساوى بأن يكون الجواب على قدر السؤال بدون زيادة أو نقصان .

الوجه الثانى : المطابقة بمعنى المشاكلة للسؤال فى تركيب كل منهما نعنى أن السؤال اذا كان جملة اسمية فالجواب ينبغى أن يكون جملة اسمية مشاكلا للسؤال ، واذا كان السؤال جملة فعلية ينبغى أيضا أن يكون الجواب جملة فعلية ، وبناء على هذا فانه اذا حذف أحد ركنى الجملة فى الجواب ينبغى أن يقدر المحذوف ما به يتم التطابق ، وهذا

التطـابق اللفظى ليس لازما فى كل موضـع ، لأن المقام هـو الفيصل فى تحديد المطلـوب منهما ، فالجـواب قد يأتى عـلى خلاف هذين الوجهين ، ويـكون مطابقا للسؤال أيضـا ، لأن مرادى بالمطابقة ما هو أعم من المطابقة اللفظية بينهما فتدخل فيه المطابقة المعنوية ، فاذا كان السؤال جملة اسمية ، وجاء الجواب جملة فعلية فالمطابقة حاصلة من حيث المعنى ، بل ان هذه المطابقة المعنوية يرجحها النحاة على المطابقة اللفظيـة اذ يرون أن التطابق بمعنى التشاكل ليس واجبا كما سيتضح فى البحث ، وقد يجىء الجواب أعم من السؤال أى يزاد فى الجواب عما يطلبه السؤال لاقتضاء المقام ايـاه فيكون أيضا مطـابقا لمقتضى الحال ، وقد يجىء أنقص منه لضرورة الحال ، فيكون مطابقا أيضا باعتبار المقام ٠

وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال ، تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك اذ هو الأولى والأجـدر فى هذا المقام،وهذا ما عرف عند البلاغيين بالاسلوب الحكيم ٠

يتضح مما سـبق أن كل المباحث التى بيناها تدخـل تحت مطابقة الكلام المشتمل على السؤال والجـواب لمقتضى الحـال ، فيكون ما روعى فيه المطابقة اللفظية أو المعنوية بين السـؤال والجواب ، روعى فيه أيضا المطابقة باعتبار المقام ٠

المطابقة فى اللغة والاصطلاح :

يقال : طابق الشىء الشىء أى ساواه ، وتطابق الشيئان : تساويا والمطابقة : الاتفاق،وطابقت بين الشيئين اذا جعلتهما على حذو واحد،ومنه قولهم فى المثل « وافق شن طبقه »، والمطبق

من السيوف الذى يصيب المفصل فيبينه ، يقال : طبق السيف اذا أصاب المفصل فأبان العضو ، ومنه قولهم للرجل اذا أصاب الحجة : انه يطبق المفصل ، ويقال للرجل البليغ قد طبق المفصل ، وفى حديث ابن عباس أنه سأل أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن امرأة غير مدخول بها طلقت ثلاثا فقال : لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فقال ابن عباس : طبقت ، قال أبو عبيدة قوله : طبقت : أراد أصبت وجه الفتيا ، ومنه قولهم طبق فلان اذا أصاب فص الحديث ، ويقول الخليل بن أحمد طابقت بين الشيئين اذا جمعتهما على حذو واحد •

فالمادة اللغوية ـ اذا ـ للمطابقة تدور حول : المساواة والاتفاق واصابة الغرض ، وعلى هذا يكون المراد من مطابقة الجواب للسؤال فى الاصطلاح ، تناسب الجواب مع السؤال ، واصابته موقعه المناسب فى النظم على حذو السؤال وملاءمته لمقتضى المقام •

والنظم القرآنى المحكم فيه آيات بدئت بسؤال وجهه بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبيان طائفة من الأحكام الشرعية ، فيبين المولى ـ عز وجل ـ الجواب الدقيق لهذه الأسئلة مخاطبا رسوله بأن يبلغهم هذه الاجابات لتكون تشريعا لكل المسلمين فى كل زمان ومكان •

الفصل الأول

المشاكلة اللفظية بين السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مشاكلا للسؤال فى اللفظ فان كان السؤال جملة اسمية ينبغى أن يكون الجواب كذلك ، ويجىء ذلك فى الجواب المقدر أيضا ، فاذا قلت : أزيد قام أم عمرو ؟ فالوجه فى جوابه أن تقول : زيد قام أو عمرو قام ، وهذا هو مذهب علماء البيان فقد نقل الامام بدر الدين الزركشى عن ابن الزملكانى فى البرهان قوله : « أطلق النحويون القول بأن « زيدا » فاعل اذا قلت : « زيد » فى جواب « من قام» ؟ على تقدير : « قام زيد » وعقب الزركشى على ما نقله عن ابن الزملكانى بقوله : والذى يوجبه جماعة علم البيان أنه مبتدأ لوجهين :

أولهما : أنه مطابق للجملة التى هى جواب الجملة المسئول بها فى الاسمية ، كما وقع التطابق فى قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا »(١) أى أنزل خيرا فى الجملة الفعلية ٠

الثانى : أن اللبس لم يقع عند السائل الا فيمن فعل الفعل ، فوجب أن يقدم الفاعل فى المعنى ، لأنه متعلق بغرض السائل اذ هو محل الشك عنده ، وأما الفعل فمعلوم عنده ، ولا حاجة الى السؤال عنه ، فحرى أن يقع فى الأخرى التى هى محل التكملات والفضلات(٢) ٠

---

(١) سورة النحل الآية ٣٠ ٠

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٤/٤٩ ٠

والزركشي متأثر فيما قاله بامام البلاغيين عبد القاهر حيث قرر أن المسئول عنه بالهمزة يجب أن يليها فيقدم لأجل هذا ما عداه مما هو مسلم معلوم غير مسئول عنه ، فاذا علمت أن عندى رجلا وترددت فى أنه زيد أو عمرو فقل : أزيد عندك أم عمرو ؟ واذا علمت أن زيدا موجودا وترددت فى أنه فى البيت أو فى المسجد فقل أفى البيت زيد أم فى المسجد ؟ واذا رأيت معى كتابا،ولم تعرف سبب حصولى عليه فقل : «اشتريت الكتاب أم استعرته » ؟ واذا رأيت دارا ولم تدر من بناها فقل أزيد بناها أم عمرو » ؟ وهكذا اذا ترددت فى المفعول أو الظرف أو الحال أو غير ذلك فانك تقدم المسئول عنه ، وهذا يتحقق فيما لو كان المطلوب بالهمزة التصور ، لأن المسئول عنه يكون حينئذ مفردا يمكن ايلاؤه الهمزة أما اذا كان المطلوب بها التصديق ، فلا يظهر ذلك فيها ، لأن التصديق نسبة بين الطرفين وليس أحد الطرفين أولى بهذه النسبة من الآخر ، ثم هى أمر معنوى ليس له لفظ يدل عليه حتى يمكن تقديمه بل هى ارتباط بين الطرفين فالقاعدة التى قررها الامام خاصة بالسؤال المطلوب به التصور دون التصديق(١) .

وما ذكره الامام عبد القاهر فى غاية الدقة لما فيه من ضبط الأسئلة التى تقع من السائلين أولا ، ولما فيها من تحديد المسئول عنه ثانيا ولما فيه من ازالة اللبس لدى المسئولين ثالثا فيتحدد لديهم الجواب لأن كل كلمة فى الجملة صالحة لأن يسأل عنها بالهمزة طلبا لتصورها فأذا لم توضع قاعدة تحدد لنا المسئول عنه بالهمزة التبس المراد من السؤال

---

(١) انظر : دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التقديم والتأخير والتشبيه والتمثيل ص ٢٣٨ .

فى الجملة مما يؤدى بدوره الى الغموض والتعمية التى يجب أن تنأى عنهما بلاغتنا .

ونعـود الى ما ذكره الزركشى من المطـابقة اللفظيـة بين السؤال والجواب فى قوله تعالى « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » أى أنـزل خيرا ، وقـد وقفت عـلى ما قاله جـار الله الزمخشرى فى تفسـيره لهذه الآية التى وجـه فيهـا السؤال للمتقين ، وما قالـه فى الآية التى تسـبقها فى نفس السورة بقليل ، والتى وجه فيها السؤال للكفار المسـتكبرين وهى قوله تعالى : « واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » يقول « ماذا منصوب بأنـزل بمعنى أى شىء (أنـزل ربكم) أو مرفوع بالابتداء بمعنى « أى شىء أنزله ربكم » ؟ فاذا نصبت فمعنى أساطير الأولين ، ما يدعون نزوله أسـاطير الأولين ، واذا رفعته فالمعنى : المنزل أساطير الأولين ، كـقوله تعالى : « ماذا ينفقون قل العفو » فيمن رفع ، فان قلت : هـو كلام متناقض ، لأنه لا يكون منزل ربهم أساطير قلت : هو على السخرية كقوله : « ان رسولكم .. » وهو كلام بعضهم لبعض أو قول المسلمين لهم »(١) وأقول : فى كلام الزمخشرى عبارة فظيعة فى وصف معنى كلام الله بالتناقض حيث قال : «فان قلت هو كلام متناقض ، فضمير الغيبة « هو » يعود على معنى جواب المشركين الذى بينه بقوله « فالمعنى : المنزل أساطير الأولين » ولا يليق أن يوصف معنى كلام الله بالتناقض ، ولو على سبيل الفرض ، وكان الأولى به أن يقول : كيف توفق بين انكارهم

---

(١) الكشـاف ٢/٤٠٦ .

أن يكون الله أنزل شيئا على رسوله ، وبين اثباتهم التنزيل في جوابهم « المنزل أساطير الأولين » على قراءة الرفع والمراد بأساطير الأولين : خرافات وأكاذيب الأولين ، وهى لم تنزل من السماء وانما أثرت عن الأمم السابقة ، ولا أصل لها فى الواقع ، وجواب الزمخشرى يفيد أن هذا القول ، وهو «المنزل أساطير الأولين» على سبيل التهكم والسخرية .

ويقول الزمخشرى عند تفسيره للآية الثانية التى وجه فيها السؤال للمتقين : « فان قلت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا « خيرا » أى « أنزل خيرا » ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هم أساطير الأولين ، وليس من الانزال فى شىء[1] .

يفهم من كلام الزمخشرى أن جواب المتقين مطابق للسؤال الذى وجه اليهم بينما جواب المشركين بالرفع غير مطابق للسؤال ونقول : ان جواب المشركين أيضا مطابق للسؤال ، وبيانه : أن « أساطير الأولين » على القراءة المشهورة مرفوعة ، وقرئت منصوبة شذوذا،ويحصل التطابق على كلتا القراءتين، والسؤال له توجيهان :

الأول : أن تكون « ما » استفهامية فى محل رفع بالابتداء و « اذا » بمعنى الذى ، و « أنزل ربكم » صلة الموصول والعائد محذوف تقديره : « والذى أنزله ربكم » والموصول وصلته خبر « ما » الاستفهامية فى محل رفع ، فيكون السؤال

---

(١) الكشاف ٤٠٧/٢ .

على هذا التوجيه جملة اسمية يطابقها الجواب بالرفع ، وهـو على تقديرين :

الأول : أن يقولوا : ما أنزل ربنا شيئا ، وما تدعون انزاله أساطير الأولين ، لأنهم ليسوا مقرين بانزال الأساطير من الله فيكون الجواب جملة اسمية أيضا وفقا للسؤال .

الثاني : يثبتون فيه الانزال فيقولون فى الجواب المنـزل أساطير الأولين ، لكن اثباتهم الانزال على هذا الوجه لا يكون الا على سبيل السـخرية والتهكم كما بينا ، أو على الفـرض والتقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه ، ومطابقة الجواب للسؤال على هذا الوجه بينة .

التوجيه الثانى : أن تكون « ماذا » بمنزلة اسم واحد فى محل نصب بالفعل بعده تقديره : أى شىء أنزل ربكم ؟ فيكون السؤال جملة فعلية وهى فى محل نصب مقول القول . يطابقها القراءة الشاذة بالنصب ، والتقدير أنزل أسـاطير الأولين ، ولا يكون هذا الجواب أيضا مستقيما الا على سبيل السـخرية والتهكم لأن « أساطير الأولين » السـابقة لا تكون الذى أنزله الله الآن . فقد تضمن جوابهم بيان نوع هذا الكلام وابطال أن يكون منزلا من عند الله ، وهم قد يريدون بهذا الجـواب صد المسلمين أو الذين يردون مـكة للدخول فى الاسـلام عن اتباع هذا الدين .

ولذلك جـاء عقب هذه الآية قـوله تعالى : « ليحمـلوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون »(١) .

(١) سورة النحل الآية ٢٥ .

واللام فى « ليحملوا » لام العاقبة والصيرورة ، لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ، فهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، لأجل أن يحملوا الاوزار لكن عاقبتهم ذلك على المجاز ، ونظيره قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »(١) ·

وتتضح المطابقة اللفظية والمعنوية بين السؤال والجواب فى قوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون · سيقولون لله قل أفلا تذكرون · قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم · سيقولون لله قل أفلا تتقون · قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون »(٢) فى هذه الآيات نجد الجواب فى مواضعه الثلاثة جاء مبدوءا بحرف الجر وهو اللام مقترنا بلفظ الجلالة على الرغم من مجيئه فى السؤال فى موضع واحد يفهم من هذا جواز مراعاة مطابقة الجواب للسؤال فى اللفظ والمعنى أو فى المعنى فقط فالسؤال فى الآية الأولى مجرور بحرف جر « لمن الأرض ومن فيها ·· » وقد روعى فى الجواب المطابقة اللفظية والمعنوية فجاء مجرورا مثل السؤال بحرف الجر وهو اللام · « سيقولون لله » وروعى فى الجوابين الأخيرين المطابقة المعنوية حيث جاء الجواب وهو لفظ الجلالة مقترنا بحرف الجر « اللام » على الرغم من أن السؤال لم يكن مقترنا به فجاء السؤال مرفوعا والجواب مجرورا ، وهو جواب مطابق للسؤال فى المعنى ، لأنه لا فرق بين قوله : « من رب

---

(١) سورة القصص آية ٨ ·

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٨٤ — ٨٩ ·

السموات » وبين قوله : « لمن السموات » ، ولا فرق بين أن يقال : من بيده الأمر ، ولا لمن له الاحسان ، وهذا كقولك : من رب هذه الدار فيقال زيد ، وان شئت قلت : « لزيد » ، لأن السؤال لافرق فيه بين أن يقال لمن هذه الدار ؟ ومن ربها ؟

ومما يعضد ما قلناه قراءة أبى عمرو فى الجوابين الأخيرين برفع لفظ الجلالة جوابا مطابقا لسؤاله فى اللفظ والمعنى « من رب السموات » لأنه مرفوع المحل فجاء جوابه مرفوعا ، والقراءتان تلتقيان حول معنى واحد ، وفيه دليل على أن المطابقة اللفظية بين السؤال والجواب ليست واجبة ، وانما هى جائزة ، لأن القرآن جاء بهما فى الآيات المذكورة .

وهذه الآيات جاءت فى سياق الرد على منكرى الاعادة حيث سبقت بقوله تعالى : « قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين »(١) فاحتج عليهم المولى عزوجل بماجاء على لسانهم حيث أقروا بالألوهية ، ولكنهم أشركوا معه آلهة أخرى من الأصنام،وكانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم:«مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »(٢) ، وهذا يدل على مدى التخبط فى الضلال والاضطراب فى العقيدة والانحراف عن الفطرة المستقيمة .

فالآية الأولى سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها ، وهم فى جوابهم على هذا السؤال لا يمكنهم انكار الحقيقة المستكنة فى أعماق نفوسهم ، وهى اثبات ملكية الأرض ومن فيها لله تعالى.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٧٢ و ٧٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٣ .

ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله ، وهذا هو السر فى تذييل الآية بقوله تعالى : « أفلا تذكرون » .

والسؤال الثانى عن الربوبية المدبرة المصرفة للسموات السبع والعرش العظيم وهو سؤال موحى بالهيمنة والاستعلاء على كل الموجودات ، فالمقام يقتضى الخوف من هذه القوة العظيمة المدبرة والمهيمنة على كل المخلوقات ، ولكنهم مع ذلك لا يخافون صاحب العرش ، ،ولا يتقون رب السموات السبع ، وهم يشركون معه أصناما مهينة لا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع عن نفسها شيئا ، وهذا هو السر أيضا فى ختم الآية بهذا الاستفهام التوبيخى فى قوله تعالى : « قل أفلا تتقون » .

والسؤال الثالث : عم فيه ملكية كل شىء من السموات وما فوقها ، وما بينهن ، والأرضين وما تحتهن ، وما بينهن . وما لا يعلمه احد الا هو سبحانه . ففى هذه الأسئلة ترق وتدرج من الأخص الى الاعم ، ومن الادنى بذكر الارض ومن فيها الى الاعلى بذكر السموات السبع وما فوقها من عظمة عرشه المجيد ، ومن ثم كان تذييل الآية بهذا الاستفهام الموحى باستبعاد أن يخدعوا عن طاعة الله أو أن يخيل اليهم أن يشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ، بعد ظهور الأدلة البينة على وجود الله ووحدانيته . وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع فكيف بهم يقرون بربوبيته وهيمنته على كل الموجودات وملكوته لكل شىء ، وينكرون البعث والمعاد ، انه لمنطق فاسد ، فان من قدر على خلق كل هذه الموجودات والسيطرة عليها وتدبر شئونها ، فانه يكون على اعادتهم بعد موتهم أقدر .

وبين القرطبى المطابقة اللفظية والمعنوية بين السؤال

والجواب فيقول : «وقرأ أبو عمرو سيقولون الله فى الموضعين الأخيرين وهى قراءة أهل العراق ، والباقون « لله » ، ولاخلاف فى الأول أنه « لله » لانه جواب « لقل لمن الأرض ومن فيها .. » فلما تقدمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب فيكون مطابقا للسؤال لفظا ومعنى ، لانه قال فى السؤال « لمن » فقال فى الجواب « لله » ، وأما من قرأ سيقولون الله فلأن السؤال بغير لام ، فجاء الجواب على لفظة مطابقا له لفظا ومعنى أيضا ، وأما من قرأ « لله » باللام فى الأخيرتين وليس فى السؤال لام فلأن معنى « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم » قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم، فتكون المطابقة أى مطابقة الجواب للسؤال فى المعنى .

وقد يكون تطابق الجواب للسؤال مشكلا فيحتاج الى مزيد من التأمل وامعان النظر حتى يزول هذا الاشكال ويسلم التطابق منه كما فى قوله تعالى حكاية عن ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى جواب « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون »(١) .

فالغرض من الاستفهام هنا التقرير بمعنى حمل المخاطب على الاقرار بما يعلمه والجاؤه اليه بايلاء المقرر به الهمزة ، فهم أرادوا حمله على أن يقر لهم بأنه الفاعل ليكون اقراره حجة عليه أمام الأشهاد ليرتبوا عليه الجزاء الذى أعدوه له وهو الاحراق بالنار ، ولم يريدوا تقريره بالفعل لأن الفعل واقع مشار اليه ، ومن العبث أن تسأل عن الشىء المشاهد الذى هو نصب عينيك وتشير اليه أموجود أم لا ، فليس مراد الكفار

---

(١) سورة الأنبياء ٦٢ و ٦٣ .

اذا حمله على الاقرار بأن الكسر قد كان ، ولكن مرادهم حمله على الاقرار بأن الكسر قد كان منه لا من أحد غيره بدليل قول ابراهيم – عليه السلام – فى الجواب « بل فعله كبيرهم هذا » ولو كان المراد التقرير بالفعل لقال فى الجواب فعلت أو لم أفعل ٠

ويرى الزركشى أن ما بعد بل ليس بجواب للهمزة فان « بل » لا يصلح أن يصدر بها الكلام ، والجواب المحقق مقدر دل عليه سياق الكلام ، ولو صرح به لقال : ما فعلته بنفى الفعل عنه بل فعله كبيرهم »(١) ٠

ويبدو أن ابراهيم – عليه السلام – لم يرد أن يصرح بنفى الفعل عنه حتى لا يكون كذبا صريحا ، وحاشا للأنبياء أن يصدر منهم هذا النوع من الكذب ، فهو عليه السلام قد أثبت الفعل لكبير الأصنام ، وهذا ليس واقعا فى الخارج ، وانما أراد أن يتوصل منه الى اثبات الفعل لنفسه على طريق التعريض – وقد قيل : « ان فى التعريض لمندوحة عن الكذب » ٠

ولايضاح هذا المعنى المستفاد من عرض الكلام وسياقه أقول :

ان جواب ابراهيم – عليه السلام – قد تضمن الاقرار والاعتراف بأنه هو الكاسر على وجه التعريض ، فقصد ابراهيم – عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر منه الى الصنم الكبير ، وانما قصد تقريره لنفسه ، واثباته

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤/٥٠ ٠

لها بأسلوب تعريضى . وتحقيق هذا : أنهم لما نسبوا الفعل اليه ، ونسبه هو الى الكبير دار الفعل بينهما بحسب ذلك ، وبما أن الصنم الكبير لا يتصور منه فعل الكسر عقلا فيكون ابراهيم — عليه السلام — كأنه قد اعترف وأقر بأنه هو الكاسر لكن لا على وجه التصريح بل على وجه التعريض ، فالفعل دائر بين قادر عليه وعاجز عنه ولكنه أثبت للعاجز على طريق التهكم فيلزم منه انحصاره فى الآخر القادر عليه .

ويقول جارالله الزمخشرى : « هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا أذهان الراضة من علماء المعانى ، ثم أتى بمثال يزيد المعنى التعريض وضوحا فقال : « وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للأمى أو المخرمشى ، لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر »(١) .

وفى هذا الجواب أيضا افحام لهم وتبكيت واستخفاف بعقولهم لأنه نسب الفعل الصادر منه الى الصنم الكبير ، وهذا الصنم الذى لا يتصور منه فعل الكسر ألم يعبدوه ؟ ألم يعظموه فى نفوسهم بل ويخصوه بمزيد من التعظيم والعبادة فاما أن يعترفوا بذلك فيستهزئوا بعقولهم ، واما ألا يعترفوا فيحترموا عقولهم ، وفى كلتا الحالتين الحجة قائمة عليهم ، ولذلك

---

(١) الكشاف ٢/٥٧٧ .

يقول الزمخشري : « فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم »
قال تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم »(١) وأعطاه الله رشدا خاصا يليق بمثله ممن انتصب لرسالته وأهل لمخاللته قال تعالى : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين»(٢) فاضافة الرشد الى ضميره عليه السلام لافادة الاختصاص ، فهو رشد خاص يتميز به عن غيره من عطاء الرحمن ، والله تعالى أعلم حيث يهب الرشد لمن يشاء من عباده لاسيما رسله الذين اصطفاهم من خلقه ليبلغوا رسالته .

ولعل السر فى اختيار الصنم الكبير بالابقاء عليه ونسبة الفعل اليه هو أنه عليه السلام رأى منهم تعظيم الأكبر لكونه أكمل من باقى الأصنام وعلم أن ما هذا شأنه يصان أن يشترك معه من دونه فى التبجيل والتكبير فحمله ذلك على تكسيرها منبها لهم على أن الله أغير وعلى محق الأكبر أقدر ، « فأسند الفعل اليه ، لأنه هو الذى تسبب لاستهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه »(٣) .

وهذه الحجة القوية التى الزمتهم والتى تضمنها هذا الجواب البليغ منبها الى سخافة عقولهم وفساد عقيدتهم قد هز مشاعرهم وحرك تفكيرهم وردهم الى شىء من التدبر والتأمل « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » على الحقيقة ،

---

(١) سورة الأنعام : ٨٣ .
(٢) سورة الأنبياء الآية : ٥١ .
(٣) الكشاف ٢/٥٧٧ .

لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين» قصروا الظلم على أنفسـهم ونفوه عمن فعل التكسير بآلهتهم ، من القصر الاضافى وهو من قصر القلب ، وأكدوا جملة القصر بأن ، وضمير الفصل ، واسـمية الجملة ، وتعريف المسـند بأل الجنسـية .

تفتحت بصيرتهم على الحق لحظة من اللحظات فاستشعروا ما فى موقفهم من سخف وعناد ومكابرة ، وما فى عبادتهم لهذه التماثيل من ظـلم فادح ، ولكنها لم تكن سوى ومضـة من نور الحق أعقبها الظلام بالعود الى الظلم ، والعنـاد والمكابرة التى هى ديدنهم ، ويصور القرآن هذا العود بقولهم : « ثم نكسوا على رؤوسهم » انه تصوير بالحركة الجسمية الدالة على انقلاب الحقـائق فى نفوسـهم فبدلا من أن يستمروا عـلى الحق الذى تفتحت بصـيرتهم عليه فاعتـدلوا فى تفكيرهم وفى منطقهم بالاعتراف بأسناد الظلم اليهم عادوا سريعـا الى ما كانوا عليه من الغى والضلال والعناد والمكابرة ، والنكس هو القلب بجعل أعلى الشىء أسفله ، وأسفله أعلاه ، انه انتكاس وارتكاس فى مهاوى الباطل ، ونرى البون الشاسع بين اعتدالهم فى تفكيرهم حين استقاموا ورجعوا الى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصـالحة وبين انقلابهم عنه مجادلين بالباطل عنادا ومكابرة بما يشير اليه مدلول حرف العطف « ثم » من التراخى الرتبى فى قـوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم » ، وقد يكون النكس مستعارا للرجـوع عن الفكرة المستقيمة فى وصف أنفسـهم بالظلم الى الفكرة المعوجة الفاسدة فى تجويز عبادتها مع عجزها فضلا عن كونها فى معـرض الألوهية ، ولاشـك أن انقلابهم عـلى

رؤوسهم أدى الى قلب الحقائق فى نفوسهم بعد اعتدالهم واستقامتهم عليها مدة يسيرة ، ومن ثم انقلبوا على رؤوسهم بلا عقل ولا تفكير قائلين « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ، فلم يقابلوا الحجة بالحجة بل ان قولهم هذا من أقوى الحجج عليهم ، وأنه حجة لابراهيم — عليه السلام — أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ٠

وقد يكون انتكاسهم على رؤوسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم به ابراهيم عليه السلام ، فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن وجوب مشاكلة الجواب للسؤال هو قول جمهور علماء البيان، لكن النحويين لا يوجبونه فقد نقل الزركشى عن ابن مالك قوله : اذا قلت : « من قرأ ؟ » فتقول : « زيد » ، فانه من باب حذف الفعل، على جعل الجواب جملة فعلية ، قال : وانما قدرته كذلك ، لا مبتدأ مع احتماله جريا على عادتهم فى الأجوبة اذا قصدوا تمامها ، قال تعالى : « من يحيى العظام وهى رميم ؟ »(١) « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ٠

ومثله قوله تعالى : « ليقولن خلقهن العزيز العليم »(٢) فى جواب قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض » وقوله تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » فتقدير الفعل عند النحويين أولى من تقدير الاسم ، والتشاكل عندهم ليس واجبا ٠

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ ، ٧٩ ٠

(٢) سورة الزخرف الآية : ٩ ٠

ويبدو أن هذا الرأى لبعض النحاة فقط كابن مالك وغيره بدليل اننا نجد سيبويه يوضح المطابقة بين السؤال والجواب فى الآية التى ذكرناها سابقا وهى قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » يقول سيبويه : « ذا » هنا مع « ما » بمنزلة اسم واحد ، وليست « ذا » اسما موصولا ، وهذا وجه فى الحديث عن « ماذا »(١) ويرى أنه ينطبق على هذه الآية اذ الاجابة فيها تعتبر جملة السائل نفسها جزءا من تركيبها، وتحمل فى مضمونها المعنى الذى يريده السائل، ولذلك جاء نصب اللفظ الكريم «خيرا» فى الآية الكريمة ، «ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » كأنه مفعول لفعل جملة السؤال وجاء المعنى مطابقا تماما لما يريده السائل ، ويبدو أن سيبويه هو أول من أشار الى التطابق والتشاكل ، وقد تأثر به علماء البيان لاسيما الزمخشرى •

ويورد سيبويه الوجه الثانى لاعراب « اذا » فيقول : « أما أجراؤهم ذا » بمنزلة « الذى » فهو قولك (ماذا رأيت ؟) فيقول المجيب « متاع حسن » أى المرئى متاع حسن ، وهذا يتفق مع ما ذكرناه فى الآية الثانية التى وجه فيها السؤال للمشركين ، وكان الجواب بالرفع فى قوله تعالى : « واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » •

ويذكر سيبويه مثالا على منوال الآية الأولى التى وجه فيها السؤال للمتقين فيقول : « وأما اجراؤهم اياه مع « ما » بمنزلة اسم واحد فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فتقول : « خيرا » ، كأنك قلت : « ما رأيت ؟ »(٢) •

---

(١) الكتاب ج ٢٢٢/٤ •

(٢) الكتاب ٤١٨/٢ •

ومما تجدر الاشارة اليه أن ما نقله الزركشى عن بعض النحويين كابن مالك فى ترجيحه الجواب بالجملة الفعلية على عادة العرب فى الأجوبة اذا قصدوا تمامها ، وتقدير الفعل عندهم أولى من تقدير الاسم ، ليس معناه عدم وجود التطابق اذ هو حاصل فى المعنى أشار الى ذلك السمين الحلبى عند قوله تعالى : « ليقولن خلقهن العزيز العليم » فيقول : كرر الفعل للتوكيد اذ لو جاء العزيز بغير « خلقهن » لكان كافيا كقولك : من قام ؟ فيقال : زيد وفيها دلالة على أن الجلالة الكريمة من قوله : « ليقولن الله » فى جواب « ولئن سألتهم من خلقهم » مرفوعة بالفاعلية لا بالابتداء ، للتصريح بالفعل فى نظيرتها، وهذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى اذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال(١) .

ويرى بعض المفسرين تطابقا بين السؤال والجواب فى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٢) فالسؤال فى هذه الآية ليس عن ماهية الانفاق لانه كان معلوما لهم ، فهم يعلمون أن الذى أمروا به انفاق مال يخرج قربة لله تعالى ، فاذا كان هذا ليس مرادا من السؤال تعين أن المطلوب به هو بيان مصرفه أى شيء هو ؟ وحينئذ يكون الجواب مطابقا للسؤال من حيث اللفظ والمعنى والمقام اذ المقام هنا يقتضى أن يقع الانفاق فى مصارفه الشرعية فهى اذا أولى

---

(١) الدر المصون ٦/٩٢ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٥ .

بالبيان لاسيما « أنهم كانوا فى الجاهلية ينفقون على الأهل والندامى ، وينفقون فى الميسر يقولون : فلان يتمم أيساره أى يدفع عن أيساره أقساطهم من مال المقامرة ويتفاخرون باتلاف المال ، فسألوا فى الاسلام عن المعتد به من ذلك دون غيره • فأجيب بقوله : قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ••الخ فجاء ببيان مصارف الانفاق الحق ، ومن ثم طابق الجواب السؤال »(١) •

ويرى بعض المفسرين أن الجواب فيه بيان ما تضمنه السؤال ، وضم اليه زيادة بها يكمل الغرض المقصود الذى أريد بيانه ، وذلك لأن قوله تعالى « ما أنفقتم من خير » جواب عن السؤال ، وقوله « فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل تكميل لبيان الانفاق من الخير لأنه لا يكمل الا اذا كان مصروفا الى جهة الاستحقاق •

وقيل : فى الآية حذف وهو المنفق عليه تقديره : ماذا ينفقون ولمن يعطونه فجاء الجواب عنهما فأجاب عن المنفق بقوله « من خير » وعن المنفق عليه بقوله « فللوالدين » وما بعده ، وعلى هذا أيضا يكون الجواب مطابقا للسؤال • ويتفق مع ما جاء فى سبب النزول فقد روى الكلبى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عمرو بن الجموح ، وكان شيخا كبيرا هرما وهو الذى قتل يوم أحد ، وعنده مال عظيم فقال : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت هذه الآية • وقوله : ما أنفقتم من

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣١٧ •

خير بيان ما ينفقـونه وهو كل خير فالذى ينفق خـير للمعطى وخير للآخذ وخير للجماعة وخير فى ذاته ومن ثم توحى هـذه الكلمة بأن المنفق عليه أن يتحرى أفضل ما عنده فينفقـه قال تعالى : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون »(١) .

ويفهم من كـلام الزمخشرى أن الجواب عن السـؤال فى هذه الآية من باب اسلوب الحكيم حيث قال : فان قلت : كيف طـابق الجـواب السـؤال فى قوله : « قل ما أنفقتم » وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف ؟ قلت : قد تضمن قوله : « ما أنفقتم من خير » بيان ما ينفقونه وهو كل خير وبنى الكلام على ما هـو أهم وهو بيـان المصرف ، لأن النفقـة لا يعتد بها الا أن تقع موقعها قال الشاعر :

ان الصـــنيعة لا تكون صـــنيعة
حتى يصاب بهـا طريق المصنع (٢)

يعنى لما كان الأهم لهم السؤال عن المصرف اذ الانفـــاق لا يعتد به ان لم يقع موقعه بنى الكلام فى الجواب على بيـان المصرف تنبيها على أنه هو الأهـم وأدرج فى أثنائه الجـواب عن المسئول عنه وهو أن المنفق الخير أى المال الحلال ، فان المال انما يطلق عليه الخير اذا كان حلالا ومع هذا لا يخرج من باب اسلوب الحكيم ، لأن السؤال وان أجيب عنه الا أن جـوابه وقع تبعـا لشىء آخر وهو الأصل والأهم بخلاف السـؤال عن الأهلة فانه

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٧ .
(٢) الكشاف ٣٥٦/١ .

نزل السؤال ثمة كلا سؤال وبين شيئا آخر تنبيها على أن سؤالهم ليس مما يليق بهم(١) .

وفى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(٢) نجد أن هذا السؤال قد أعيد مرة ثانية بعد السؤال عن حكم الخمر من حيث الحل والحرمة وسبب نزول هذه الآية هو أن المسلمين لما رأوا الله ورسوله يحضان على الانفاق ويدلان على عظيم ثوابه سألوا عن مقدار ما كلفوا به ، هل هو كل المال أو بعضه ، فأعلمهم الله أن العفو مقبول ، والعفو فى اللغة الزيادة ، وعلى هذا يكون العفو هو ما تيسر مما زاد عن حاجة الانسان فى نفسه وعياله ومن تلزمه مؤنتهم .

والعفو قرئت بالرفع وبالنصب أما قراءة الرفع فهى لابن كثير على أن العفو خبر مبتدأ تقديره : هو العفو ، وهى مبنية على جعل « ذا » بعد « ما » موصولة أى يسألونك عن الذى ينفقونه ، ويأتى الجواب ليفسر ذا الموصولة وهو العفو فناسب أن جاء به مرفوعا كمفسره ليطابق الجواب السؤال، وأما قراءة النصب فهى قراءة الجمهور على تقدير كونه مفعولا لفعل دل عليه ماذا ينفقون ، وهذه القراءة مبنية على اعتبار « ذا » بعد « ما » الاستفهامية ملغاة ، فتكون « ما » الاستفهامية مفعولا مقدما لـ « ينفقون » فناسب أن يجىء مفسر « ما » فى جواب السؤال منصوبا كمفسره ومن ثم يطابق الجواب السؤال ، والسر فى اختيار كلمة العفو فى الجواب هو أن هذه الكلمة لها دلالات متعددة ، وكل دلالة منها لها نصيب من المعنى الذى

(١) انظر حاشية القطب التحتانى ص ٣٩٥ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

يقتضيه المقام فالعفو يدل على معنى التجاوز عن الذنب وترك العقاب ، ومن أسـماء الله « العفو » فعول من العفـو ، وهو التجاوز عن الذنوب ومحو أثرها والذى يتصدق من ماله انما يرجو من وراء ذلك كثرة حسناته ومحو سيئاته فقد ورد فى الحديث الشريف « الصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار » ومن الأخلاق الفاضلة التى هى فى الدرجة العليا من الايمان أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تدفع السـيئة بالحسـنة فلا تقابل السـيئة بالسـيئة وانما تقابلها بالحسـنة ، ومن صفات المتقين قوله تعالى : « والعافين عن الناس » ، والعفو بمعنى الكثرة ودلالتها فى هذا المقـام هو أن المؤمن اذا كثر ماله بحيث يكفيه مؤونة نفسه وأهله ومن تلزمه نفقته ثم يبقى بعد ذلك مال كثير هـذا المـال المتبقى هو الذى ينبغى على المسلم أن يتصدق منه ليضاعف من حسناته ، وفيه دلالة على معنى السهولة واليسر يقال : أدرك الأمر عفوا صـفوا ، أى فى سهولة وسراح ويقال : خذ من ماله ما عفا وصفا أى ما فضل ولم يشق عليه ففيه اشارة الى أن المسـلم حين ينفق المـال فى الصدقة يجب عليه أن تسـخو به نفسه فى سـهولة ويسر ، وألا تضيق بهذا البذل وفيه معنى الزيادة يقال : عفا فلان على فلان فى العـلم اذا زاد عليه(١) وفيـه دلالة على أن المنفق من هـذا المـال الزائد عن حاجته ابتغاء مرضـاة الله انما يبتغى من وراء ذلك نماء هذا المـال وزيادته كما جاء فى الآية الكريمة « يمحق الله الربا ويربى الصـدقات » وهذه المعانى كلهـا مسـتوحاه من مادة « العفو » وقد تكون مرادة لا سيما أنه لا يوجد تعارض بينها فالقرآن حمال أوجه .

---

(١) انظر لسان العرب مادة « عفا » .

والمطابقة بين السؤال والجواب قد تكون غير ظاهرة فتحتاج حينئذ الى مزيد من التأمل واعمال الفكر ومراعاة جانب السياق وأسباب النزول كما فى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا ، وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول ... الآية »(١) فقوله : «ماهى» تكرير للسؤال عن حالها وصفتها ليزدادوا بيانا لوصفها ، فان قيل : اذا كان المراد السؤال عن الصفة كان حقه أن يقولوا · أى بقرة هى ؟ أو كيف هى ؟ ، لأن « ما هى » سؤال عن حقيقة الشىء ، قلنا : انهم لما سمعوا اتصافها بهذه الصفة العجيبة الشأن والتى لم يروا مثلها فى سائر البقر حيث لم يعرفوا من جنس البقر ما هو موصوف بهذه الصفة ، فكأنهم لم يعرفوا حقيقتها ، ومن ثم أوردوا العبارة السائلة عن حقيقتها وان أرادوا صفتها ، ولهذا حسن فى الجواب ذكر الصفات التى بها تتميز تلك البقرة عن غيرها ومن ثم كان الجواب مطابقا للسؤال ، فهم تعجبوا من وصف موسى عليه السلام للبقرة التى يذبحونها ويضربون القتيل ببعضها فيحيا ويخبر عن قاتله ، فظنوا أن البقرة الموصوفة بهذه الخاصية لا تكون الا بقرة معينة ومن هنا سألوا عن أوصافها سؤالا بعد سؤال ، لكنهم أخطأوا فى ذلك ، لأن هذه الآية العجيبة ما كانت من خاصية البقرة بل كانت معجزة يظهرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام ، فلذلك غير التكليف الى البقرة الموصوفة وشدد عليهم حيث شددوا على أنفسهم(٢) .

---

(١) سورة البقرة : ٧٠ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ١/٥٥٤ . والتفسير الكبير ٢/١٦٤ .

وقد أجاز السكاكى أن يسأل بـ « ما » عن الوصف تقول: ما زيد ؟ وجوابه كريم(١) ، وقد تكون ما هنا فى الآية للسؤال عن الوصف ، وحينئذ فلا تأويل لكى يتم التطابق .

وقد لا يظهر مطابقة الجواب للسؤال الا بتقدير لفظ فى السؤال مناسب محذوف كالمضاف فى قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » يفهم من ظاهر السؤال فى الآية أنه عن ماهيتى الخمر والميسر ، وهذا غير مراد ، والا لم يكن الجواب مطابقا للسؤال ، اذ ليس فى ماهيتهما اثم كبير ومنافع للناس، ولذلك لابد من تقدير مضاف مناسب حتى يتطابق الجواب مع السؤال فى المعنى ، والتقدير : يسألونك عما فى تعاطيهما ، أو عن حكمهما حلا وحرمة ، ودليل المحذوف فى السؤال مذكور فى الجواب ، وهو قوله تعالى : « فيهما اثم كبير » أى فى تعاطيهما بشرب أحدهما ، واللعب بالآخر ذنب عظيم .

وفى نظم السؤال والجواب أسرار بلاغية نذكر منها ما يلى:

ــ السر فى اقتران الخمر بالميسر فى الذكر ، وعطفه عليه بالواو ، والاخبار عنهما بأخبار متحدة ، فما قيل فى مقتضى هذه الآية من تحريم الخمر أو من التنزيه عن شربها يقال مثله فى الميسر . فالسر ــ والله أعلم ــ فى هذا الاقتران هو أن الميسر قرين الخمر فى التمكن من نفوس العرب يومئذ ، وهو أكبر لهو يلهون به ، فكثيرا ما يأتونه وقت الشراب اذا أعوزهم اللحم للشواء عند شرب الخمر ، فهم يتوسلون لنحر الجذور فى هذا الوقت بالميسر الذى يؤدى بهم الى الاعتداء على جزر الناس بالنحر .

(١) مفتاح العلوم .

— اطلاق الكبير على الاثم مجاز مرسل علاقته اللزومية ، لأن الاثم ليس من الاجسام حتى يوصف بالكبر ، فالمراد من الكبير : الشديد فى نوعه ، اذ يلزم من كونه كبيرا أنه شديد .

— جيء فى الجواب بـ « فى » الدالة على الظرفية ، لافادة شدة تعلق الاثم والمنفعة بهما ، لأن الظرفية أشد أنواع التعلق، وهى هنا ظرفية مجازية ، وجعلت متعلقة بذات الخمر والميسر للمبالغة ، والمراد فى تعاطيهما أو فى استعمالهما المعتاد .

— قرأ الأخوان حمزة والكسائى « كثير » بالثاء المثلثة ، والباقون بالباء وتوجيه قراءة الأخوين هو أن الكثرة باعتبار الأفراد الآثمين من الشاربين والمقامرين ، فلكل واحد اثم ، وأما باعتبار مايترتب على تعاطيهما من توالى العقاب وتضعيفه، واما باعتبار ما يترتب على شربها مما يصدر من شاربها من الأقوال السيئة والأفعال القبيحة ، واما باعتبار من يزاولها من لدن كانت عنبا الى أن شربت ، فقد لعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الخمر ولعن معها عشرة منها : بائعها ومبتاعها الخ فناسب ذلك أن يوصف اثمها بالكثرة ، وأيضا فان قوله : « اثم » مقابل لـ « منافع » ، ومنافع جمع ، فناسب أن توصف مقابلة بمعنى الجمعية وهى الكثرة(١) .

ومن المطابقة بين السؤال والجواب ما يكون بتأويل بعض كلمات السؤال كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله »(٢) ، فالمطابقة هنا فى

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٢/٣٤٣ ، ٣٤٤ .
(٢) سورة الصف الآية : ١٤ .

الجواب حاصلة لسؤال عيسى بن مريم للحواريين بقوله : « من أنصارى الى الله » فالسؤال جملة اسمية وجوابهم « نحن أنصار الله » جملة اسمية أيضاً ، هذا من حيث اللفظ ، والمطابقة أيضاً حاصلة فى المعنى بتأويل « من أنصارى الى الله » بمعنى « من جندى متوجهاً الى نصرة الله » فتكون الى بمعناها الحقيقى ، بخلاف من جعلها بمعنى « مع » فلا تحصل المطابقة فى المعنى أى من أنصارى مع الله ، والاضافة فى « أنصارى » تختلف فى المعنى عن أنصار الله ، اذ هى فى الأولى تفيد الاختصاص فيكون المعنى على هذا من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى فى نصرة الله ؟ ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرنى مع الله ، لأنه لا يطابق الجواب(١) ، والدليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله ، وذلك لتوافق القراءتين فى المعنى ، والمعنى فى « نحن أنصار الله » : نحن الذين ينصرون الله فهى من اضافة الفاعل الى المفعول : أى فاعل النصرة .

وقد تكون مطابقة الجواب للسؤال بواسطة الحكاية أى حكاية لما جرى بين المؤمنين المسئولين والمجرمين فى قوله تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين »(٢) فهذا الجواب لا يتم ارتباطه بما قبله من السؤال وتطابقه الا على طريق الحكاية ، يقول الزمخشرى : « فان قلت : كيف طابق قوله :

---

(١) الكشاف ٤/١٠١ .

(٢) سورة المدثر من الآية ٣٨ الى ٤٧ .

« ما سلككم » وهو سؤال للمجرمين قوله : « يتساءلون عن المجرمين » وهو سؤال عنهم ، وانما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم ؟ قلت : ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وانما هو حكاية قول المسئولين عنهم ، لأن المسئولين يلقون الى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون قلنا لهم : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين الآيات . الا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل فى غرابة نظمه(١) والأمر أهون مما قاله الزمخشرى ، فكان يكفى أن يقدر « قائلين » أى يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم ما سلككم والمقصود من السؤال مع علمهم به : زيادة التوبيخ والتخجيل والتحسير لهم ، وتحذير غيرهم من أفعالهم وأقوالهم ، وقوله : « وكنا نكذب بيوم الدين» كان ينبغى تقديمه لأنه أعظم الذنوب فلم أخر ؟ قيل : ان المعظم قد يؤخر كقوله تعالى : « ثم كان من الذين آمنوا »(٢) والمعنى كنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين أى يوم القيامة ، فجاء النظم على طريقة الترقى من الأهون الى الأصعب ، وفى النظم طريقة أخرى تقابل هذه الطريقة وسماها السيوطى بالتدلى وهى الانتقال بالمعانى من الأعلى الى الأدنى .

وقد يقتضى المقام والتأخير فى جملة السؤال لغرض بلاغى كما يقتضى التصريح فى الجواب بالاسم الظاهر بدلا من الاضمار الذى يقتضيه ظاهر الحال وذلك فى قوله تعالى :

---

(١) الكشاف ١٨٧/٤ .

(٢) سورة البلد من الآية : ١٧ .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير »(١)
نزلت هذه الآية - على ما روى عن كثير من المفسرين - فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى التى بعثه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيرا لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمى ، وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير ، وفيها من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام بالقتال فيه ... الخ » فسأل المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام ولكن النظم القرآنى لم يأت على هذا الظاهر فلم يقل : « يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام » ، وانما قدم الشهر الحرام على القتال فيه مع أن السؤال عن القتال فيه ، وأبدل « قتال فيه » من الشهر الحرام من بدل الاشتمال ، وقد أبدلت النكرة من المعرفة ، لأن التعريف فى الشهر الحرام للجنس ، وانما اختير طريق الابدال هنا لأجل الاهتمام بالشهر الحرام تنبيها على أن السؤال لأجل الشهر أيقع فيه قتال ؟ لا لأجل القتال هل يقع فى الشهر ، وهما متآيلان ، لكن التقديم لقضاء حق الاهتمام وفى طريق بدل الاشتمال تشويق بالاجمال ثم التفصيل ، وتنكير « قتال » فى السؤال لافادة العموم اذ ليس المسؤول عنه قتالا معينا ، ولا فى شهر معين بل المراد هذا الجنس فى هذا الجنس »(٢) .

وفى الجواب أعيد المسئول عنه وهو « قتال فيه » بالتنكير

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧ .
(٢) التحرير والتنوير ٢/٣٢٥ .

أيضا ، وقيل : ان من حق النكرة اذا تكررت أن تجيء بالألف واللام حتى يكون المذكور الثانى هو الأول كما فى قوله تعالى «كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسـول »(١) ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثانى غير الأول كمـا فى قوله تعـالى : « ان مع العسر يسرا »(٢) بتكـرار « يسرا » نكرة ولذلك قال صلى الله عليـه وسـلم « لن يغلب عسر يسرين » ، وأجيب عنه بأن القوم أرادوا بقولهم : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » ذلك القتـال المعين الذى أقدم عليه عبد الله ابن جحش ، فقال تعالى : « قل قتال فيه كبير » وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيرا ليس هو هذا القتال الذى سـألتم عنه ، بل هو قتال آخر ، لأن هذا القتال كان الغرض منه نصرة الاسـلام واذلال الكفر ، فكيف يكون هـذا من الكبائر ، انمـا القتال الكبير هو الذى يكون الغرض فيه هدم الاسلام ، وتقوية الكفر ، فكان اختيـار التنكير فى اللفظين لأجل هذه الدقيقة الا أنه تعـالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضـيق قلوبهم بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لمـا أرادوه ، وباطنه يكون موافقا للحق . وهـذا انما حصـل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير ، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة » أهـ(٣) .

يفهم من كلام الفخـر الرازى أنه قد عدل فى الجـواب عن السـؤال عن القتال المعين الذى وقع من عبد الله بن جحش الى

---

(١) سورة المزمل الآية : ١٦ .

(٢) سورة الشرح الآية : ٦ .

(٣) التفسير الكبير ١/٢٩٩ .

قتال آخر عام يصدر من الكفار لغرض هدم الاسلام وتقوية الكفر ، لأن هذا القتال هو الأحق بوصف الكبر بينما قتال عبدالله بن جحش لا يستحق هذا الوصف لأن الغرض منه اذلال الكفار ونصرة المسلمين فلما تباين الغرضان تباين المقصود من القتالين فى السؤال والجواب .

وقول : ان كلام الفخر الرازى فيه نظر ، لأنه ليس من المحتم واللازم أنه اذا أعيدت النكرة كانت غير الأولى ، بل قد تكون هى هى ، لأن العبرة فى بيان المراد من التكرار انما هو السياق واتباع القرائن ، وانما لم يعرف لفظ القتال ثانيا مع تقدم ذكره فى السؤال لأنه قد استغنى عن تعريفه باتحاد الوصفين فى لفظ السؤال ولفظ الجواب وهو « فيه » الدالة على الظرفية ، وليكون الجواب مطابقا للسؤال فى اللفظ ، ولعل هذا هو السر فى اعادته مظهرا فى محل الاضمار ، والمعنى أن القتال فى الأشهر الحرم اثم كبير ، فالنكرة هنا للعموم بقرينة المقام اذ لا خصوصية لقتال قوم دون آخرين ، ولا لقتال فى شهر دون غيره لا سيما ومطابقة الجواب للسؤال قد أكدت العموم ، لأن المسؤول عنه حكم هذا الجنس وهو القتال فى هذا الجنس وهو الشهر الحرام من غير تفصيل)١) واعادة السؤال فى الجواب جاء فى آيات متعددة فى القرآن الكريم قال تعالى : «قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده »(٢) وسوف نعرض له فى مظانه من البحث .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٢/٣٢٦ .

(٢) سورة يونس : ٣٥ .

وابن القيم يذكر السر البلاغى فى وضع المظهر موضع المضمر فى تكرار لفظ القتال فى الجواب ، فيقول : « فان قيل : فما الفائدة فى اعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفى بضميره فقال : قل هو كبير ، وأنت اذا قلت : سألته عن زيد أهو فى الدار ؟ كان أوجز من أن تقول : أزيد فى الدار ؟ قيل فى اعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة ، وهى تعلق الحكم الخبرى باسم القتال فيه عموما ولو أتى بالمضمر وقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه وليس الأمر كذلك ، وانما هو عام فى كل قتال وقع فى شهر حرام »(٣) .

وما قاله ابن القيم قريب مما قاله الرازى ، ولكنه يختلف عنه فى أنه أراد من اعادة لفظ القتال فى الجواب بلفظه الظاهر العموم وهو تعلق الحكم الخبرى وهو الاتصاف بالكبر بالقتال على وجه العموم فيدخل فيه القتال المسؤول عنه بينما على رأى الفخر الرازى لا يدخل فيه القتال المسؤول عنه لأنه كما يقول لا يستحق الوصف بالكبر ، وانما الذى يستحق هذا الوصف هو القتال العام الذى يصدر من الكفار لغرض هدم الاسلام فيكون القتال المسؤول عنه مختلف عن القتال المجاب عنه .

ويلزم على رأى الرازى أن يكون السؤال عن حكم قتال والجواب بحكم قتال آخر وقلنا ان النكرة فى السؤال والجواب قد وصفتا بقوله « فيه » الظرفية فتخصصت النكرة فى كل منهما ، فنزلت منزلة المعرفة ، واعادة لفظ « قتال » مع هذا الوصف ليس كاعادة النكرة المحضة بل يصير بهذا الوصف كاعادة المعرفة ومن ثم يسلم لنا ما قلناه

---

(٣) بدائع الفوائد ٢/٤٧ .

من أن اعادة السؤال فى الجواب لغرض المطـابقة والله أعلم ، يعنى ان القتال فى الشهر الحرام فيه اثم كبير سواء صـدر من عبد الله بن جحش أو من غيره ، ولكن صـدكم عن سـبيل الله وكفركم به ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام ، واخراج أهله منه أكبر عند الله من القتـال فى الشـهر الحـرام ، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال فى الشهر الحرام .

ومن المطابقة أى مطابقة الجواب للسـؤال قوله تعـالى : « ويسألونك عن اليتامى قل اصـلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم »(١) لـما نزل قوله تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا »(٢) وقوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن »(٣) ترك القوم مخالطة اليتامى والمقاربة من أموالهم والقيـام بأمورهم فعند ذلك اختلت مصالح اليتـامى وساءت معيشـتهم فثقل ذلك على النـاس وبقـوا متحـيرين ، ان خالطوهم وتولوا أمر أموالهـم استعدوا للوعيد الشديد ، وان تركوهم وأعرضوا عنهم اختلت معيشتهم ، فماذا يفعلون مع اليتـامى لحفظ أموالهم ولنجاتهم من هذا الوعيد الشديد فيحتمل أنهم سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هـذه الواقعة ، ويحتمل أنهم تمنوا أن يبين الله لهم كيفية الحال فى هـذا البـاب فأنزل الله تعـالى هـذه الآية(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٠ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٠ .
(٣) الأنعـام : ١٥٢ .
(٤) انظر : التفسير الكبير ٣/٢٢٥ .

فالسؤال هنا عن اليتامى أى عن كيفية التعامل الصحيح معهم الذى لا يؤدى بهم الى الدخول فى هـذا الوعيد الشديد ، والذى يصـلح من شأنهم ويحفظ لهم أموالهم ، ووقـع جواب السؤال بجملتين :

احداهمـا : من مبتـدأ وخبر « اصـلاح لهم خـير » ، « اصلاح » مبتدأ ، وسوغ الابتداء به أحد شيئين اما وصفه بقوله « لهم » ، واما تخصيصه بعمله فيه ، و« خير » خبره ، واصلاح مصدر حذف فاعله وتقديره : « اصلاحكم لهم خير » فالخبرية للجانبين أعنى المصـلح والمصـلح له ، ووقع جواب السؤال بجملتين احداهما من مبتدأ وخبر ، وجاء المبتدأ نكرة للدلالة على تناوله كل اصلاح على وجه العموم فهى كلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم اذ تتضـمن صلاح نفسـه وصـلاح ماله واصــلاح حاله بالتجـارة المؤدية الى تنميـة ماله وزيادته ، ومصـالح اليتيم كثيرة ومتنوعة فينبغى أن يكون عين المتكفل لمصالح اليتيم على تحصـيل الخير فى الدنيا والآخرة لنفسـه واليتيم فى ماله وفى نفسه(١) ٠

وثانيهما : من شرط وجزاء دال على جواز الوقوع لا على طلبه وندبيته والمراد بالمخالطة المصاهرة فى النـكاح ، بدليل قوله : « فاخوانكم » وبدليل قوله تعالى بعد هذه الآية : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ٠

وبيان مطـابقة الجـواب للسؤال قد تحتاج الى حس واع

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٣/٣٦٦ والدر المصون ٢/٤١١ ، ٤١٣ ٠

وبصيرة نافذة فى استجلاء معانى الألفاظ وفقه بما ترمى اليه دلالات التراكيب مما يفصح عنه السياق فتنحدر المعانى من مضامين الكلام لتكون دليلا على اثبات معنى القصر من «انما» حينما تقع فى صدر الجواب فانه لا يتأتى مطابقة الجواب للسؤال الا بافادتها معنى النفى والاثبات كما فى قوله تعالى : « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به اليكم » فالسؤال فى قوله : « أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين : ، والجواب : « انما العلم عند الله ، وأبلغكم ما أرسلت به اليكم »(١) فهود – عليه السلام – يقول لقومه : لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم فقالوا ساخرين : ائتنا بما تعدنا فقال : انما العلم عند الله أى لا عندى حتى يتحقق مفاد القصر باثبات العلم – أى علم ما أوعدهم الله به – عند الله ونفيه عن نفسه .

يقول الزمخشرى : فان قلت : من أين طابق قوله تعالى « انما العلم عند الله » جوابا لقولهم : فأتنا بما تعدنا ، قلت : من حيث ان قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب ، ألا ترى الى قوله تعالى : « بل هو ما استعجلتم به » فقال « لا علم عندى بالوقت الذى يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا انما علم ذلك

---

(١) سورة الأحقاف الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

عند الله فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه فى وقت عاجل تقترحونه »(١) ٠

فالمطابقة لا تتأتى الا بافادة « انما » معنى القصر ، فلو قال : العلم عند الله لما صلح جوابا لأنه يثبت العلم لله ولاينفى العلم عن نفسه ، وقد تأثر بهاء الدين السبكى(٢) بما قاله الزمخشرى فذكر دليلا رابعا على افادة « انما » معنى القصر وهو أن مطابقة الجواب للسؤال لا تحصل الا اذا كانت « انما » مفيدة للحصر ، فأضاف السبكى هذا الدليل الى ما قاله البلاغيون حيث استدلوا على ذلك بثلاثة أدلة :

أحدها : قول النحاة انما لاثبات ما يذكر بعدها ونفى ما سواه ٠

وثانيها : تضمنها معنى ما والا بدليل قول المفسرين فى قوله تعالى : « انما حرم عليكم الميتة » قرئ برفع الميتة ونصبها ، وقد تطابقت القراءتان فى افادتهما معنى القصر ٠

وثالثها : صحة انفصال الضمير معها مثل قول الشاعر

أنا الذائد الحامى الذمار وانما
يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فانه لما كان غرضه أن يخص نفسه بأنه المدافع وأن يقول : ما يدافع عن أحسابهم الا أنا ، فصل الضمير وأخره للدلالة على المعنى المقصود ٠

---

(١) الكشاف ٣/٥٢٤ ٠
(٢) عروس الأفراح ٢/١٩٣ ٠

« وهذا الذى أضافه السبكى يختلف عن الأدلة السابقة لأنه لا يعتمد على ما ذكره العلماء ولحظة أهل الصناعة فى كلمة « انما » وانما تعتمد على تصرفها فى الاسلوب ، وكيف رمى بها الكلام الفصيح فى مرمى لا يصلح الا بالقصر »(١) .

ولم يستدل السبكى بهذه الآية فقط ، وانما ذكر لها نظائر من ذلك قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله »(٢) فلا يكون الجواب مطابقا للسؤال الا بافادة « انما » معنى القصر فى قوله تعالى : « قل انما علمها عند ربى » لم يفد سوى اثبات علمها لله ، وعلى هذا لا يكون الجواب مطابقا للسؤال ، لأن المطابقة تحصل بالاثبات والنفى وهما مفاد القصر أى باثبات علمها لله تعالى ونفى علمها عنه صلى الله عليه وسلم .

ويلاحظ هنا أن السؤال كرر وكررت معه الاجابة ، وذكر الزمخشرى سر التكرار مبينا أنه للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : « كأنك حفى عنها » بينما يرى ابن المنير سرا آخر للتكرار فيقول : « وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى الا فى الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير أن الكلام اذا بنى على مقصد واعترض فى أثنائه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول ، وقد بعد عهده طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته

---

(١) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ١٤٥ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٧ .

ببدايته، وبيان ذلك: أنه تعالى لما ابتدأ الكلام بقوله «يسألونك» ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله : « قل انما علمها عند ربى ... » الى قوله : « بغتة » أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الانكار عليهم ، وهو المضمن في قوله « كأنك حفى عنها » وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة بنوع من الاجمال كالتذكرة للأولى مستغنى عن تفصيله بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه القاعدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : « قل انما علمها عند الله »(١) .

ويلاحظ أن السؤال هنا قد أتى في جملتين :

الأولى : « يسألونك عن الساعة » السؤال بلفظ المضارع لافادة تجدد السؤال منهم وقتا بعد وقت .

والثانية : بصيغة الاستفهام على البدل من الساعة أى عن زمان وقوعها أو عن ارسائها ، ولا يكاد يستعمل الارساء الا في الشيء الثقيل ، ومن ثم ندرك التلاؤم بين مرساها وثقلت ، وفائدة توالى جملتين في السؤال ليس للتنصيص على وقتها فحسب بل على الساعة ذاتها ، وما يتعلق بها ، ثم باعتبار حلولها في وقتها المعين ، وقد روعى ذلك في الجواب الملقن عنها فلم يقل : انما علم وقتها ، بل قال تعالى « قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو .. »(٢) ومن ثم تطابق الجواب مع السؤال من كل الوجوه .

---

(١) الانتصاف لابن المنير والكشاف ١٣٥/٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٣٤/٤ وتفسير ابو السعود ٣٠٠/٣ .

وفى آية النازعات « يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها » ذكر الزمخشرى وجهين فى تفسير الجواب الأول وهو بعيد : « فيم أنت » أى فى أى شىء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به : يعنى ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها فى شىء ، وعلى هذا فالاستفهام للتعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل : فى أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها ، والمعنى : انهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لاتزال تذكرها وتسأل عنها ، ثم قال : « الى ربك منتهاها » أى منتهى علمها الى ربك وحده لا الى أى مخلوق آخر

والثانى وهو الأرجح : أن قوله « فيم » انكار لسؤالهم أى فيم هذا السؤال ، ثم قيل : « أنت من ذكراها » على الاستئناف تعليلا للانكار أى ارسالك وأنت خاتم الأنبياء • علامة من علاماتها كقوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت فى نفس الساعة » ، وقوله أيضا : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » فهذا الجواب أشار الى اقتراب الساعة وهذا هو المهم لهم أن يعلموه حتى يستعدوا لها بالايمان والعمل الصالح ، وهذا الوجه أقوى من سابقه لأن قوله تعالى : « يسألونك كأنك حفى عنها » أى أنك لا تحتفى بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك وهم يسألونك كما يسئل الحفى عن الشىء ، يناقض ما قاله فى الوجه الأول ، ومن ثم كان هو الصواب(١) •

ومن مطابقة الجواب للسؤال أيضا باسلوب القصر المفاد من « انما » أيضا ما جاء فى حوار نوح — عليه السلام — مع

(١) الانتصاف لابن المنير والكشاف ١٣٥/٢ •

قومه حين « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين، قال انما يأتيكم به الله ان شاء»(١) أى ليس الاتيان بالعذاب الى انما هو الىمن كفرتم به وعصيتموه « ان شاء » يعنى ان اقتضت حكمته أن يعجله لكم ، ففى كل هذه الآيات تتبين مهمة الرسل فى البلاغ عن الله عز وجل فقط أما ما يسألون عنه من أن يأتيهم بما أوعدهم من الانذار بانزال العذاب الأليم بهم فليس من مهمتهم ولا هو فى مقدورهم وانما هو من أمر الله فهو الذى يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة فى تأجيل العذاب أو تعجيله وسنته هى التى تنفذ ، وما يملكون أن يردوها أو يحولوها ٠

وأتى «بانما» فى هذه الأجوبة ولم يأت بالنفى والاستثناء، لأن المقام يتطلب « انما » حيث انها تأتى فى الأمر المعلوم أو المنزل منزلة المعلوم وما دخلت عليه « انما » وان لم يكن معلوما لدى المخاطبين وهم الكفار الا انه منزل منزلة المعلوم ، لأنهم لو تدبروا سنن الله فى خلقه ، وما اقتضته حكمته بتعجيل العذاب أو تأجيله ، ولو تحققوا من الفصل بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة لما جهلوا هذه الحقيقة مطلقا ، ولما سألوا هذه الأسئلة لأنها حينئذ ستصبح معلومة لهم ٠

وفى قوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا »(٢) السياق فى هذه الآية يرجح أن المراد من الناس فى هذه الآية هم المشركون ، وكانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة هود آية ٣٢ و ٣٣ ٠

(٢) سورة الاحزاب الآية : ٦٣ ٠

عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الاستهزاء . واليهود كانوا يسألونه امتحانا ، لأن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب ، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديدا للمستعجلين، واسكاتا للمتحنين(١) . وأتى بانما هنا أيضا ليحصل التطابق بين السؤال والجواب على نحو ما بينا فى الآيات السابقة .

وفى قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون »(٢) .

هنا فى هذه الآية مطابقة الجواب للسؤال بناء على ظاهر كلامهم ، ولكنه ليس مطابقا للواقع لأن النسبة الكلامية المستفادة من الخبر فى جوابهم « انما كنا نخوض ونلعب » لا تتطابق مع النسبة الخارجية فى الواقع ، ولذلك لم يلتفت المولى عز وجل الى اعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه وأثبت لهم خبث ضمائرهم وسوء نيتهم لأن قصدهم كان استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلى حرف الانكار وذلك انما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء ووقوعه . وقد أطلع الله رسوله على ما خاضوا فيه فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى غزوة تبوك ، وركب من المنافقين يسيرون بين

---

(١) الكشاف ٣/٢٧٥ .

(٢) سورة التوبة الآية : ٦٥ .

يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات » فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال : احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا : يا نبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر(١) والقصر فى قولهم : « انما كنا نخوض ونلعب » للتعيين أى ما تحدثنا الا فى خوض ولعب دون ماظننته بنا من الطعن والأذى ، والاستفهام انكارى توبيخى وتقديم المعمول وهو بالله وما عطف عليه على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين ، لأنهم لما أتوا فى اعتذارهم بصيغة قصر التعيين جىء فى الرد عليهم بصيغة قصر تعيين لابطال مغالطتهم فى الجواب ، فأعلمهم بأن لعبهم الذى اعترفوا به ما كان الا استهزاء بالله وآياته ورسوله لا بغير أولئك ، فقصر الاستهزاء على تعلقه بمن ذكر اقتضى أن الاستهزاء واقع لا محالة ، لأن القصر قيد فى الخبر الفعلى فيقتضى وقوع الفعل على ما قرره الامام عبد القاهر فى معنى القصر الواقع فى قول القائل : « أنا سعيت فى حاجتك » ، ففعل السعى واقع لا محالة ، ولكنه أراد أن يقصره على ضميره «أنا» المتقدم .

ومن التطابق الخفى الذى يحتاج الى مزيد من التأمل ودقة النظر فى بيانه ما نجده فى قوله تعالى : » ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا

---

(١) انظر : الكشاف ٢/٢٠٠ .

فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »(١) فالسؤال في قوله : « فيم كنتم » أى قالت الملائكة للمتوفين «فيم كنتم» في أى شيء كنتم من أمر دينكم وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ٠

يقول الزمخشرى : فان قلت كيف صح وقوع قوله « كنا مستضعفين في الأرض » جوابا عن قولهم « فيم كنتم » ، وكان حق الجواب أن يقولوا كنا في كذا أو لم نكن في شيء ٠ قلت : معنى فيم كنتم : التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، فقالوا كنا مستضعفين اعتذارا مما وبخوا به واعتلالا بالاستضعاف ، وانهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء »(٢) ٠

يفهم من كلام الزمخشرى أن المراد بالسؤال توبيخهم بأنهم لم يكونوا على الدين غير ملتزمين بأوامره ونواهيه أمرهم بأن يهاجروا من دار الكفر الىدار الاسلام فلم يستجيبوا، رضوا بالذلة والمهانة في دار الكفر تشبثا بمتاع قليل خافوا من سلبه منهم فلم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر ومعه شيء من ماله ، أو آثروا الراحة خوفا من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له الطريق ، فالاستفهام في الآية انكارى توبيخى حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا أى لم تركتم الهجرة ، وفي هذا الاستفهام اشارة الى أن موقفهم هذا بركونهم في دار الكفر واستسلامهم

---

(١) سورة النساء الآية : ٩٧ ٠

(٢) الكشاف ١/٥٥٦ ٠

بالمذلة والدنية يؤدى الى انهم لم يكونوا فى شىء من امور دينهم اعلاء لقيمة الهجرة والجهاد فى سبيل الله ونصرة المؤمنين اذ هو ذروة سنام الدين كما ورد فى الحديث الشريف ، وجاء جوابهم مطابقا لسؤال الملائكة حيث تضمن جوابهم الاعتذار عما وبخوا به من ترك الهجرة والجهاد فى سبيل الله والاعتلال بالاستضعاف ، ولم تقبل منهم الملائكة هذا الاعتذار لانهم كاذبون فيه ، فلم يكن الضعف والعجز هو الذى يحملهم حينئذ على قبول الذل والهوان فى دار الكفر ، وانما شىء آخر حملهم عليه وهو حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم يمسكهم فى دار الكفر وهناك دار الاسلام ويمسكهم فى الضيق ، وهناك أرض الله واسعة ، ومن ثم جابهتهم الملائكة بالحقيقة الواقعة التى تحمل معنى التأنيب والتبكيت فقالوا « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »(١) .

فتطابق الجواب مع السؤال من حيث ان السؤال فى قوله : « فيم كنتم » للانكار التوبيخى والجواب اعتذار عن ترك الهجرة التى وبخوا عليها بعجزهم عن القيام بها ، ولما كانوا غير صادقين فى هذا الاعتذار أى أن جوابهم لم يطابق الواقع الخارجى كذبتهم الملائكة فى قولهم وردت عليهم باستفهام آخر تكذيبى يحمل معنى التأنيب والتبكيت ، فى قولهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » والاستفهام للنفى وقد دخل على أداة النفى ، ونفى النفى اثبات بمعنى أن أرض الله كانت واسعة فلم لم تهاجروا فيها .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن : ٧٤٤ .

وقد يرد على كل من السؤال والجواب اشكال فيجاب عنه من عدة وجوه لدفعه فيصير الجواب مطابقا للسؤال بعد زوال هذا الاشكال وذلك فى قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب »(١) أما اشكال السؤال فانه اذا كان سبحانه علام الغيوب فما معنى سؤاله ، وأجيب عنه بأنه لقصد التوبيخ للقوم كما أن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد ، وأما أشكال الجواب فلأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد نفوا العلم عن أنفسهم مع علمهم بما أجيبوا به فيلزم الكذب عليهم وهم منزهون عنه ، وأجيب عنه بوجوه :

الأول : أنه ليس لنفى العلم بل كناية عن اظهار التشكى والالتجاء الى الله بتفويض الأمر كله اليه ، أى ان علمك — سبحانك — أعلى من كل علم وشهادتك أعدل من كل شهادة .

الثانى : أنه على حقيقته لكن على خصوص فى الزمان وهو أول الأمر لذهولهم من الخوف فان للقيامة زلازل وأهوالا بحيث تزول القلوب عند مشاهدة تلك الأهوال عن مواضعها فينسون أكثر الأمور ، فهنالك يقولون : لا علم لنا ، فاذا عادت قلوبهم اليهم فعند ذلك يشهدون للأمم ، وهذا الوجه ضعيف لانه تعالى قال فى صفة أهل الثواب « لا يحزنهم الفزع الأكبر »(٢) ، وقال أيضا : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة »(٣) .

---

(١) سورة المائدة الآية : ١٠٩ .
(٢) سورة الأنبياء : ١٠٣ .
(٣) سورة عبس الآية ٣٨ ، ٣٩ .

فكيف يكون حال الأنبياء والرسل أقل من ذلك ، ومعلوم أنهم لو خافوا(١) لكـانوا أقل منزلة من هؤلاء الذين أخبر الله عنهم انهم لا يخافون البتة •

الثالث : فى تأويل قول الرسـل « لا علم لنا » انهم نفوا أن يكونوا يعلمون ما كان من آخر أمر الأمم بعد موت رسـلهم من دوام على اقامة الشرائع أو التفريط فيها وتبديلها ، فيكون قول الرسل : « لا علم لنا » محمولا على حقيقته •

الرابع : وهو الذى اختـاره ابن عباس انهم انما قـالوا لا علم لنا لأنك تعلم ما أظهروا وما أضمروا ، ونحن لا نعـلم الا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا ، فلهذا المعنى نفوا العلم عن أنفسهم ، لأن علمهم عند الله كلا علم •

الخامس : أن المـراد من نفى العـلم المبـالغة فى تحقيق فضيحتهم كمن يقول لغـيره ما تقول فى فلان ؟ فيقـول : أنت أعلم منى كأنه قيل : لا يحتاج فيه لشهادة لظهوره وهذا الوجه أيضا ليس بقوى،لأن السؤال انما وقع عن كل الأمة وكل الامة ما كانوا كافرين حتى تريد الرسل بالنفى تبكيتهم وفضيحتهم •

السادس : قيل معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمـور به لأنك علام الغيوب ، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظـواهر التى منها اجابة الأمم لرسلهم ، فكأنه لا علم لنا الى جنب علمك ، أى أن علمنا ضئيل لا يعد شيئا بالقياس الى علمك •

---

(١) انظر : التفسير الكبير ١٨٣/٦ •

وعبر فى جواب الرسل بـ « قالوا » المفيد للمضى مع أن الجواب لم يقع للدلالة على تحقيق أنه سيقع حتى صار المستقبل من قوة التحقق بمنزلة الماضى فى التحقق(١) ٠

وقد يؤول الجـواب الى معنى التعجب حتى يتطـابق مع السؤال ففى قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لولا أنـزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشـاء ويهدى اليـه من أنـاب »(٢) ٠

يقول الزمخشرى : فان قلت كيف طابق قولهم «لولا أنزل عليـه آية من ربه » قـوله : « قل ان الله يضل من يشـاء » ؟ قلت : هو كلام يجـرى مجرى التعجب من قـولهم ، وذلك أن الآيات البـاهرة والمتكاثرة التى أوتيهـا رسول الله صـلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليـه قط كان موضـعا للتعجب والاستنكار فكأنه قيـل لهم : ما أعظم عنادكم ، وما أشد تصميمكم على كفركم ان الله يضـل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشـدة الشكيمة فى الكفر فلا سبيل الى اهتدائهم ، وان أنزلت كل آية »(٣) ٠

وقد يكون معنى الجـواب : « قل لهم ان الله أنزل عـلى آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، لكن الاضـلال والهـداية من

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير والتفسير الكبير ٠
(٢) سورة الرعد الآية ٢٧ ٠
(٣) الكشـاف ٢/٣٥٩ ٠

الله ، فأضلكم عن تلك الآيات وهدى اليها آخرين ، فلا فـائدة فى تكثير الآيات(١) .

والتعجب المفهوم من الجواب يتلاءم مع السؤال المقصود به التعنت والعناد والاقتراح ورد الآيات المتكاثرة .

وقد يكون الجواب فى هذه الآية على الاسلوب الحكيم كمـا يفهم من كلام المرحوم الشهيد سيد قطب ، فان الجواب عدل به عن مطلب السؤال ، لأنهم طلبوا نزول آية خـارقة ولم يلتفت الى ما سألوا عنه فى الجواب تنبيها لهم الى أن الآيات ليست هى التى تقود الى الايمان فللايمان دواعيه الأصيلة فى النفوس ، وأسبابه المؤدية اليه من فعل هذه النفـوس فمن أناب الى الله جعلـه أهلا لهداه ومن لا ينيب فهـو الذى يسـتأهل الضـلال فيضلهم الله(٢) يعنى أن المدار فى الايمان على مدى استعداد القلب له واسلام الوجه اليه ، وسعى المرء الى طلبه ، فان وجد فى النفس هذه الدوافـع كان أهلا لتقبل هـداية الله ، وان لم يوجد فيها كان بعيدا عنها فيتسلط عليه الشيطان فيصغى الى اغـوائه فيضله الله ، وعـلى هذا يكون المعنى : ان طلبكم آيـة خارقة لا فائدة منه بجانب الآيات المتكاثرة فى النفس والآفاق وفى الآيات المتلوة المنزلة عليه صلى الله عليه وسلم ، وانما كان يجب عليكم — اذا أردتم الايمان — أن تسـألوا عن الأسـباب الحقيقية والدوافع الأصـيلة المؤدية الى الايمان ، وهى تكمن فى الاستعداد الفطرى فى اتجاه القلب اليه ، وتعلق النفـوس

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ٢٨٩ .
(٢) انظر فى ظلال القرآن ٤/٢٠٦٠ .

في السعى نحو تحقيق أسبابه ، هنا يهدى الله اليه من أناب ، ويفهم منه أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال فيضلهم الله ٠

ويبدو أن كلام المرحوم سيد قطب مستفاد من تفسير الفخر الرازى لهذه الآية فقد ذكر وجوها أربعة فى تأويل الجواب فى هذه الآية الوجه الثالث منها قوله : « انهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة فى ظهور الآيات والمعجزات فان الاضلال والهداية من الله ، فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فانه لم يحصل الانتفاع بها ، ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فانه يحصل الانتفاع بها ، فلا تشتغلوا بطلب الآيات ، ولكن تضرعوا الى الله فى طلب الهدايات ٠

وقد يبدو الجواب فى الظاهر غير منطبق على السؤال ، ولكن اذا عرف المطلوب من السؤال بمزيد من التأمل عرف أن الجواب مطابق له وذلك فى قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى »(١) ٠

سبب نزول الآية هو أن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى حضور جانب الطور لأخذ التوراة ، اختار من قومه سبعين رجلا يصحبونه الى ذلك ، ثم سبقهم شوقا الى ربه تعالى وأمرهم بلحاقه ، فعوتب على ذلك ٠

والسؤال من رب العزة وهو يقع منه تعالى لأغراض بلاغية يقتضيها المقام ، وليس لاستدعاء المعرفة من علام

---

(١) سورة طه آية ٨٣ و ٨٤ ٠

الغيوب ، بل اما لتعريف غيره أو لتبكيته أو تنبيهه أو للانكار، وغير ذلك من الأغـراض وهنا السـؤال عن سبب العجلـة فان « ما » الاستفهامية فى الأصل للسؤال عن الشىء ، وقد تـكون للسؤال عن وجهه وسببه ·

والثانى هو المراد هنا ، واذا كان السؤال عن سبب العجلة فان الجواب المنطبق عليه أن يقال هو طلب زيادة رضاك والشوق الى كلامك وتنجيز موعدك ·· الخ ·

أما قوله : « هم أولاء على أثرى » فغير منطبق عليـه فى الظاهر لكن اذا علم أن هذا السؤال قد تضمن شيئين :

أحدهما : انكار العجلة فى نفسها ·

والثانى : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين الى موسى ـ عليه السلام ـ بسط العذر وتمهيـد العلة فى نفس ما أنكر عليه فقال لم يوجد حتى الا تقدم يسير مثله لا يعتد به فى العادة ولا يحتفل به وليس بينى وبين من سبقته الا مسافة قريبة يتعلق بمثلهـا الوفد رأسهم ثم عقبـه بجواب السؤال عن السبب فقال : « وعجلت اليك رب لترضى » اذا علم هذا علم أن الجـواب مطابق للسـؤال لانه أجـاب عما تضمنه السؤال من انكار العجلة فى نفسها بقوله : « هم أولاء على أثرى » أى هم بالقرب منى يأتون على أثرى ، وعجلت اليك ليزداد رضاك أو ليدوم رضاك فرضاه عن موسى ـ عليه السلام يفسر بازدياده أو بدوامه ، لأن طلب الرضا يسـتدعى عدمه لامتناع طلب الحاصل ، وعدم رضـاه عز وجل عن موسى عليه السـلام لا يليق بالنبى المعصوم ، وقـدم موسى عليه السـلام الجـواب عما تضـمنه السـؤال من انكار العجلة على سـببها

لكون العجلة نقيصة فى نفسها ، ومن حيث انه ترك قومه وأوهم التعظيم عليهم بقربه من الله ، فاهتم بالاعتذار عنها وقدمه على بيان السبب ، وليست العجلة نقيصة أو مذمومة فى كل المقامات فانها قد تكون محمودة فى بعض المواضع كخوف فوات فعل الخير ، وهو مما ينبغى المبادرة اليه قال تعالى « وسارعوا الى مغفرة من ربكم ... الآية »(١) .

وقد يسأل المعاندون الجاحدون من المشركين عن يوم الفتح وهو يوم الفصل بين الفريقين من خلاف ، وتحقق الوعيد الذى كانوا يستبعدونه ، فيسألون عن زمان وقوعه استعجالا له واستهزاء وتكذيبا ، فيأمر الله عز وجل — رسوله بأن يجيبهم اجابة تتطابق مع ما عرف من غرضهم فى سؤالهم ، فلا يجابوا بتحديد زمانه ، لأنهم لم يسألوا عنه لغرض الاسترشاد ، وانما للتكذيب والاستهزاء وذلك فى قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون »(٢) .

يقول الزمخشرى : « فان قلت : قد سألوا عن وقت الفتح ، فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا على سؤالهم ؟ قلت : كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم ، فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا ، فكأنى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٣ وانظر الكشاف ٥٤٨/٢ وحاشية الشهاب ٢٣٠/٦ .

(٢) سورة السجدة الآية ٢٨ ، ٢٩ .

بكم ، وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان ، واستنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا »(١) .

فالظاهر من السؤال طلب تعيين يوم الفتح المسئول عنه والمعنى الثانى المفهوم من وراء المعنى الأول هو الاستهزاء والتكذيب بهذا اليوم فطلبوا تعيين موعده استعجالا منهم .

وجاء الجواب مطابقا للمعنى الثانى الذى هو غرضهم من السؤال فأجيبوا بما يمنع الاستعجال فقيل لهم : لاتستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان حينئذ والوعيد الذى أنذرتم به لايستطيعون الافلات منه ولا يقدرون على دفعه ، وهو جواب يزعزع القلوب ويخلخل المفاصل،فالتهديد المفهوم من الجواب والذى تصاعدت نبرته حدة فى قوله تعالى : « فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون » يتطابق مع ما فى سؤالهم من معنى التكذيب والاستهزاء . وفسر يوم الفتح بفتح مكة أو بيوم بدر وبيان مطابقة الجواب للسؤال على هذا التفسير هو أن المقتولين فى هذا اليوم لا ينفعهم ايمانهم حال القتل كايمان فرعون حين ألجمه الغرق بخلاف الطلقاء الذين آمنوا بعد الأسر ، فالجواب بذلك مطابق للسؤال من غير تأويل(٢) .

وقد يقع السؤال من الكفار على سبيل التعنت لانكارهم اياه ، فيأتى الجواب مطابقا للسؤال فيقابل انكارهم وتعنتهم

---

(١) الكشاف ٣/٢٤٧ .

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ٤٥٦ .

بتهديد مخيف كما فى قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون »(١) ٠

يقول الزمخشرى : فان قلت : كيف انطبق هذا جوابا عن سؤالهم ؟ قلت ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له الا تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب عن طريق التهديد مطابقا لمجىء السؤال على سبيل الانكار ٠

وقد يقع السؤال من الكفار على سبيل التعنت والعناد والتبكيت فيأمر الله رسوله بأن يجيبهم اجابة ملزمة بالدليل المقنع لو أعملوا عقولهم لتركوا العناد والمكابرة لأنه دليل مستمد من واقع حياتهم مما يشاهدونه حادثا متجددا فى كل وقت وذلك فى قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين »(٢) ٠

فقولهم : ائتوا بآياتنا لا حجية فيه مطلقا ، فاطلاق الحجة عليه قد يكون حقيقة بناء على زعمهم الفاسد لانهم ساقوه مساق الحجة وقد يكون مجاز على سبيل التهكم حيث أطلق وأريد ضده وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس ، لأن قولهم هذا لا حجية فيه ، لأنه لا يلزم من عدم حصول الشىء حالا امتناعه مطلقا ، فهناك يوم معلوم قدره الله وفق حكمته يعودون فيه للحساب والجزاء ، وليست هنالك حكمة تقتضى عودتهم قبل هذا اليوم المعلوم ، وهم لا يعودون قبل هذا الموعد

---

(١) سورة سبأ آية ٢٩ ٠

(٢) سورة الجاثية آية ٢٥ ٠

لأن فريقا من البشر يقترحون هذا ، فاقتراحات البشر لا تتغير من أجلها النواميس الكبرى التى قام على أساسها الوجود،ومن ثم فلا مجال لهذا الاقتراح الساذج الذى كانوا يواجهــون به الآيات البينــات(٢) .

ولماذا يأتى الله بآبائهم قبــل الموعد الذى قــدره الله وفق حكمته العليا ، ألكى يقتنعــوا بقدرة الله على احيــاء الموتى ؟ « فانهــا لا تعمى الأبصـــار ولــكن تعمى القلــوب التى فى الصدور »(٣) ألم ينظروا بأعينهم فيما هو واقــع بينهم فى كل لحظة من انشاء الحياة فى من قدر الله وجوده فى هذه الحياة، فان من قدر على الابداء والانشاء قدر على الاعادة بل هى أهون عليــه ولذلك كان الجــواب : « قل الله يحييــكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيــه » ابطالا لما ساقوه مســاق الحجـــة .

يقــول الزمخشرى : فان قلت : كيف وقع قوله « قل الله يحييــكم ... » جوابا لقــولهم : « ائتــوا بآياتنا ان كنتــم صادقين ؟ » قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أن ما قــالوه قول مبــكت ألزموا ما هم مقــرون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم،وضم الى الزام ذلك الزام ما هو واجب الاقرار به ان أنصفوا وأصغوا الى داعى الحق وهو جمعهم الى يوم القيامة ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الاتيان بآبائهم ، وكان أهون شىء عليه(٣) .

---

(٢) انظر فى ظلال القرآن ٥/٣٢٣٢ .
(٢) سورة الحج آية ٤٦ .
(٣) الكشاف ٣/٥١٣ .

الفصل الثانى

العدول فى الجواب عما يقتضيه السؤال

وقد يعدل النظم الكريم عن الجواب الذى يتطلبه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون غير ذلك بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له،وهذا الاسلوب وان لم يكن فيه تطابق فى الظاهر بين السؤال والجواب الا أنه حاصل فيه باعتبار المقام فهو جار على مقتضى الحال الداعية له ، وقد عرف البلاغيون البلاغة بأنها : مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته،وأشار الى ذلك ابن خلدون فى مقدمته فقال : «واعلم أن ثمرة هذا الفن ـ أى علم البيان ـ انما هى فهم الاعجاز من القرآن .. لأن اعجازه فى وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومه ، وهى أعلا مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها وجودة وضعها وتركيبها ..وهذا هو الاعجاز الذى تقصر الأفهام عن دركه »(١) والله ـ تبارك وتعالى ـ هو المحيط بالمقامات وخبايا النفوس على أكمل وجه وما يقتضيها من النظم البليغ مما يعجز عنه البشر ومن ثم فهو ـ أى نظمه ـ فى الدرجة العليا من الكمال .

وأول ما يلقانا من هذا الاسلوب الذى عرف عند البلاغيين باسم « اسلوب الحكيم » قول الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج »(٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩ .

نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم — رضى الله عنهما — عندما سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين : ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يعظم ويستوى ويستدير فيصير بدرا ، ثم لايزال ينقص ويدق حتى يكون كما كان فى أول ظهوره لا يكون على حال واحدة ، فلم يجبهم القرآن الكريم عن عين ما طلبوا لأن مقتضى الظاهر أن يجابوا ببيان السبب ، فعدل عنه وأجيبوا ببيان الحكمة من الأهلة وفائدتها لهم تنبيها لهم الى أنه كان الأولى بهم والأنسب لهم أن يسألوا عنها ، فان الاهلة معالم للناس يضبطون بها شعائرهم الدينية من حج وصيام وغيرهما ، كما يضبطون بها مواعيد زراعاتهم وتجارتهم ونحو ذلك ، فكان عليهم أن يسألوا عن الحكمة والثمرة المترتبة على اختلاف ضوء القمر فى الزيادة والنقصان ، أما معرفة السبب فان عقولهم لم تتهيأ له بعد ، لأن معرفة السبب مرتبطة بظواهر فلكية جغرافية وهم لم يكونوا على قدر مناسب من الخوض فى هذا العلم ، ولعل هذا هو السبب فى العدول عن الاجابة عن نفس السؤال الى الاجابة عما كان الأولى أن يسألوا عنه .

ولذلك ضرب لهم المثل من ترك باب البيت الى ظهره ، فى قوله تعالى : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » .

فان من يسأل عن سبب اختلاف أحوال الأهلة بالزيادة والنقصان ويترك السؤال عن حكمتها وفائدتها كحال من يترك باب البيت المعد للدخول فيه ، ويلجأ الى ظهره يحاول الدخول منه ، وهذا — أيضا بيان سبب الاعراض عن جوابهم الا أنه

محمول علـى التمثيل لعلهم يتنبهـون الى وجـه الصواب فيما يسـألون عنـه .

وقيل : ان قوله تعالى : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » الآية من باب الاستطراد ، وهو ذكر غير ما سـيق له الكلام اذا كان له تعلق ما به ، فانهم لما أجيبوا بأنها مواقيت للناس والحج أورد بعض أفعالهم التى كانوا يفعلونها فى الحج استطرادا ، ولا تعارض بين المعنيين فان المقام يستلزم ذكرها استطرادا لمزيد لفت أنظـارهم الى وجه الصواب والخطـأ فى سؤالهم عن طريق التمثيل ، فان المعانى به تزداد بيانا وللتنبيه على أن أفعالهم التى يأتون بها عند الاحرام ليست من البر فقد كان ناس من الأنصار اذا أحـرموا غيروا عاداتهم فى اللبـاس والتطيب ظنوا أنه لابد فى الاحرام من تغيير جميع العادات ، فغيروا عادتهم فى الدخول من الباب الى ما وراءه ، وظنـوا أن فعلهم هذا من البر ، ونبههم أيضـا الى أن البر يجب عليهم أن يأتوه من وجهه الصحيح وهو الوجـه الذى أمر الله تعـالى به ، فأفعال البـر يجب أن تؤتى من مأتاها كما وردت فى القـرآن والسنة(١) ، والا كانت بدعة محدثة ــ وأفرد سبحانه وتعـالى الحج بالذكر من باب عطف الخاص على العام ، لأن قوله تعالى : « مواقيت للناس » تشمل جميع المواقيت بما فيها ميقات الحج الزمنى ، ولكنه خص بالذكر لانه مما يحتـاج فيه الى معـرفة الوقت لارتباط أداء مناسك الحج فى وقت معلوم قال تعـالى : « الحج أشهر معلومات » ، والمقام يقتضى مزيد العناية وعـلى

(١) انظر تفسير القرطبى ٧١٩/١ .

الرغم من وضوح فكرة أسلوب الحكيم فى هذه الآية فاننا نجد من يعارضها أو يتجاهلها فقد تجاهل أبو السعود فى تفسيره كلام السكاكى عند حديثه عن هذه الآية فقال : سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم : ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، سألوه صلى الله عليه وسلم عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عبادتهم لاسيما الحج فان الوقت مراعى فيه أداء وقضاء ، وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه »(١) يفهم من كلام أبى السعود أن الكلام جار على مقتضى الظاهر ، وليس فيه عدول بالجواب عما يتطلبه السؤال فيكون الجواب مطابقا للسؤال فى المعنى بتحديد ميقات الحج ، لأن العرب كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فتؤخر الحج عن وقته المعلوم لأنهم أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها فيقولون : أنسئنا شهرا ، أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر فيحل لهم المحرم فظلوا على هذا حتى استدار التحريم على السنة كلها فقام الاسلام وقد رجع المحرم الى موضعه الذى وضعه الله فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله

---

(١) تفسير أبى السعود ٢٠٣/١ .

السموات والأرض » ، ونزل تحريم النسيء قال تعالى : « انما النسيء زيادة فى الكفر »(١) ٠

وفى قوله تعالى : « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »(٢) نجد أنه قد عدل فى الجواب عما يقتضيه ظاهر السؤال ، فهم قد طلبوا انزال آية واحدة خارقة للعادة تكون دالة على صدقه غير القرآن ، فلم يقروا بمعجزة القرآن مع انها ظاهرة لأنه عليه الصلاة والسلام نشأ فيما بينهم ، وتربى عندهم وهم علموا انه لم يطالع كتابا ، ولم يتلمذ لأستاذ ، فهذا دليل على أنه وحى من عند الله ، فالآيات التى نزلت عليه متكاثرة مما يدل على أن سؤالهم هذا للتعنت والعناد ، ولذلك أجيبوا بهذا الجواب على الاسلوب الحكيم بقصر علم الغيب على الله تعالى وحده أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لى ولا لأحد به ، يعنى أن الصارف عن انزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه الا هو(٣) ، وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم فى اعتقادهم أن فى مكنة الرسول الحق أن يأتى بما يسأله قومه من الخوارق ، فالجواب مؤذن بأن سؤالهم سؤال المقترحين تعنتا وعنادا ، وانهم يستحقون به نقمة الله وحلول عقابه ، يعنى أنه لابد أن يستأصل شأفتكم لكننى لا أعلم متى يكون ذلك ، وأنتم كذلك ، لانه من علم الغيب ، واذا كان كذلك فانتظروا

---

(١) سورة التوبة من الآية ٣٧ ٠

(٢) سورة يونس الآية ٢/٢٣٠ ٠

(٣) راجع الكشاف ٢/٢٣١ ٠

ما يوجبه اقتراحكم انى معكم من المنتظرين ، فالله سبحانه وتعالى عليم بما يخفــونه فى صـدورهم من العنـاد والتعنت حتى أصبح من عادتهم وديدنهم فلا يرجى منهم ايمان ، لأنه ما فائدة أجابتهم الى آية واحـدة مـع أن الله تعـالى أنزل عليهم الآيات الكثيرة فلم يؤمنـوا ، ولم يرتدعوا عمـا هم عليه من الغـواية والضلال ، وآيات الله الكونية ملء أبصارهم وأسماعهم ، وآيات الله فى الأمم السابقة لا تغيب عن أذهانهم ، وآيات الله المتلـوة المنزلة على رسوله يسمعونها وهى موجودة بينهم فى كل وقت، ماذا يريدون بعد ذلك ؟ لذا كان من مقتضى المقام أن يجـابوا بمثل هذا الاسلوب الحكيم الذى فيه دلالة على ما يضمره الغيب لهم من العذاب الذى ينزل بالمعاندين حيث لايرجى منهم ايمان ، ومن ثم عقب بجملة تحمل معنى التهديد والوعيد : « فانتظروا انى معكم من المنتظرين » أى تمهلـوا الى زمن ما هو فى علـم الغيب الذى استأثر الله به وحده دون غيره ، ولاشك أن ما يأتى به الله لا يترقبون منه الا شرا لهم ، جزاء لعنادهم ، وفيه - أى فى هذا الجواب - دلالة بينة على جهلهم وعدم ادراكهم طبيعـة الرسالة المحمدية وطبيعة معجزتها ، فهى ليست معجزة وقتيـة تنتهى بمشـاهدة جيل ، انمـا هى المعجـزة الدائمـة التى تخاطب العقل والقلب فى كل الأجيـال الى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا(١) .

وفى قوله تعـالى : « ويقـولون متى هـذا الوعد ان كنتم صادقين قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعـا الا ما شاء الله لـكل

---

(١) فى ظلال القرآن .

أمة أجل اذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون»(١)
عدل عن اجابة السؤال فى الظاهر ، لأن المقام يقتضى ابطال
كلامهم بما عرف فى البديع باسم المذهب الكلامى أى بطريق
برهانى ، لانه اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع
لنفسه ضرا ولا نفعاً ، فعدم استطاعته ما فيه ضر غيره أو نفعه
بهذا الوعد أولى من حيث ان أقرب الأشياء الى مقدرة المرء هو
ما له اختصاص بذاته ، لأن الله تعالى أودع فى الانسان قدرة
استعمال قواه وأعضائه ، ومن هذا الضرر نزول العذاب بهم لأن
رسول الله توعدهم وهددهم بحلول العذاب بهم ، ومر زمان ولم
يظهر ذلك العذاب فاستعجلوه واستبعدوا حدوثه فطلبوا منه
تعيين وقته تهكما فأمر الله رسوله بأن يعدل عن جوابهم عن
السؤال الى جواب آخر مطابق لمقتضى الحال وارد على الاسلوب
الحكيم ، فهم قصدوا بالسؤال : استبعاد أن يكون الوعد من
الله واثبات انه من الرسول عليه الصلاة والسلام فطلبوا منه
تعيين الوقت تهكما ، فقيل فى الجواب : هذا التهكم انما يتم
لو ادعيت انى أنا الآتى بذلك الموعود ، فاذا كنت مقرا بأنى
مثلكم فى أنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا فكيف أدعى ما ليس
لى بحق ، والمقام يتطلب هذه الاجابة التى تقطع على المعاندين
تهكمهم واستبعادهم لأنه رد عليهم اعتقادهم بهذه الاجابة
الدامغة التى تبطل دعواهم بالطريق البرهانى ، فاذا كان
صلى الله عليه وسلم لا يملك شأناً من شئون نفسه بالضر
أو بالنفع فكيف يملك شئونهم باتيان العذاب حسبما يريدون،

(١) يونس آية ٤٨ ، ٤٩ .

وتقديم الضر على النفع لمناسبته للغرض ، لأن هؤلاء المجادلين أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد ، فكان ذكر لفظ الضر أولا أبلغ من حيث ان مساق النظم لاظهار العجز عنه .

وفى الجواب نوع من القياس الصحيح ، فالكفار عندما قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ أمر الله رسوله بأن يجيبهم بطريق القياس البرهانى والمعنى : قل لا أملك لنفسى ما توعدكم الله من هذا العذاب ، ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب كما لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا .

فالمعنى : انى لا أملك شيئا من شئونى مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى اتيان عذابكم الموعود(١) .

وحكى المولى ـ عز وجل ـ قولهم بصيغة المضارع لقصد استحضار الحالة وتجددها وقتا بعد وقت،والمراد بالوعد الموعود به فالمصدر واقع موقع اسم المفعول ، والخطاب فى قوله تعالى : « ان كنتم » للرسول ، والقصد من ضمير الجمع التهكم كما فى قوله تعالى « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون » ، وقد يكون الخطاب للنبى والمسلمين جمعوهم فى الخطاب ، لأن النبى أخبر به ، والمسلمين آمنوا به فخاطبوهم بذلك جميعا لتكذيب النبى وادخال الشك فى نفوس المؤمنين به .

وقوله «الا ما شاء الله» استثناء منقطع أى ولكن ما شاء الله من ذلك كائن ، وبعد هذا الجواب المعدول به عن السؤال شرع

(١) انظر : التحرير والتنوير ١١/١٨٩ .

فى الجواب الصحيح ولم يلتفت الى تهكمهم ، واستبعادهم — فقال « لكل أمة أجل ٠٠٠ » الآية وهى واقعة موقع العلة لما قبلها ، ولذلك فصلت عنها لارتباط العلة بالمعلول ، فبين الجملتين رابط معنوى واتصال ذاتى يغنى عن حرف العطف ، فجملة : « لا أملك لنفسى » اقتضت انتفاء القدرة على حلول الوعد ، وجملة « لكل أمة أجل » تتضمن أن سبب عدم المقدرة على ذلك هو أن الله قدر آجال أحوال الأمم ، ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم بحكمة اقتضت تلك الآجال ، فلا يحل العقاب بهم الا عند مجيء وقته ٠

ولا يقف الجواب عند هذا الحد بل يأمر الله رسوله بأن يجيبهم بجواب ثان عن قولهم : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » يحمل فى طياته معنى التهديد ليواجه تهكمهم واستهزاءهم فى سؤالهم وهو قوله تعالى : « قل أرأيتم ان آتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون » ٠

وحاصله : ان قدر حصول ما سألتم تعيين وقته ونزول كسف من السماء بكم أو نحوه ماذا يحصل من فائدة لكم فى طلب تعجيل حصوله اذ لا تخلون عن أن تكونوا مؤمنين على زعمكم حينئذ وذلك باطل ، لأن العذاب يعاجلكم بالهلاك فلا يحصل ايمانكم »(١) ٠

وبين الزمخشرى السر البلاغى فى العدول عن ظاهر المقابلة حيث لم يقل : «ليلا أو نهارا» وانما قال : بياتا أو نهارا

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١٩٢ ٠

فيقول : فان قلت هلا قيل : ليلا أو نهارا ؟ قلت لانه أريد ان أتاكم عذابه وقت بيات وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت(١) ، يعنى القصد متوجه الى هذين الوقتين وقت الاشتغال بطلب المعاش فى النهار ، وقد يمتد الاشتغال به الى جزء من الليل حتى وقت المبيت وفى مقابلة وقت الغفلة من الليل حين يلجأ الانسان الى النوم والاخلاد للراحة ، والواقع أن هذين الوقتين لا ثالث لهما لاستغراق زمن الليل والنهار فلا يخلو حلول الحوادث عن أحدهما ، وفيه اشارة الى أن العذاب الذى يستعجلونه قد يقع بهم قريبا فى أى وقت من ليل أو نهار بل قد يكون ليل هذا اليوم الذى سألتموه أو فى صبيحته فعلمه عند الله لأنه من علم الغيب الذى اختص الله به ٠

والاستفهام فى قوله تعالى : « ماذا يستعجل منه المجرمون » للانكار أى انكار استعجال العذاب ، وفيه معنى التعجب منه ، ويتضمن هذا الاسلوب تهويل العذاب الذى ينتظرهم وتعظيمه، ومثله لا يستعجل بل شأنه أن يستأخر ، وفيه التفات ووضع للمظهر موضع المضمر التفت من الخطاب فى قوله : « قل أرأيتم ان أتاكم ٠٠» الى الغيبة فى قوله : «ماذا يستعجل منه المجرمون» فلم يقل : « ماذا تسعجلون منه » وفائدة الالتفات ووضع المظهر موضع المضمر هو تسجيل هذا الوصف وهو الاجرام فى حق أنفسهم حيث يستعجلون لها العذاب ، والمعنى : أخبرونى ان أتاكم عذاب الله فأى نوع من أنواع العذاب تستعجلونه

---

(١) الكشاف ٢/٢٤٠ ٠

فتذوقونه ، فاستعجال الوعيد يؤدى بهم الى الاهلاك حين وقوعه فيصيرون الى الآخرة حيث يفضون الى العذاب الخالد .

ويمضى الجواب فى الكشف عن فساد عقول هؤلاء الكفار منكرا عليهم ايمانهم فى وقت وقوع العذاب بهم بل هو أشد انكارا من استعجالهم به ، ومن ثم كان حرف العطف «ثم» الدال على التراخى الرتبى ، ففيه ترق من انكار استعجال الوعيد فى قوله تعالى : « ماذا يستعجل منه المجرمون » الى انكار ايمانهم حين وقوع العذاب بهم ، لأنهم كانوا ينكرون وقوعه ، والمراد من التراخى الرتبى افادة معنى الاستبعاد كما فى قوله تعالى : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ، لأن الايمان بالشىء مستبعد من استعجاله وانكار وقوعه استهزاء ، وهذا يدل على فساد رأيهم وضعف عقولهم ، أو بينما هم فى مفاجأة السؤال الذى ينقل مشاعرهم الى تصور الخطر وتوقعه تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلا ، وهو لم يقع بعد ، ولكن التصور القرآنى يرسمه واقعا ، فعبر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر وهو : « الآن » أى كأنه حاضر فى زمن التكلم ، وهذا الاستحضار من تخييل الحالة المستقبلة واقعة »(١) أى أتؤمنون به الآن وقد كنتم به تستعجلون » أى تكذبون فعبر عن التكذيب بالاستعجال ، لأنه سبب فيه حكاية لحاصل قولهم « متى هذا الوعد » الذى هو فى صورة الاستعجال ، والمراد منه التكذيب، وتقديم الجار والمجرور « به » أى بالوعد للاهتمام به ولرعاية الفاصلة(٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ١٧٩٨/٣ .
(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٩٤/١١ .

ومما هو قريب من الاسلوب الحكيم ما جاء فى قوله تعالى : « قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما »(١) .

يقول الزمخشرى : فان قلت : كيف وصلوا قولهم « فابعثوا » بتذاكر حديث المدة ؟ قلت كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم الى علمه فخذوا فى شىء آخر مما يهمكم »(٢) .

يريد الزمخشرى بيان المناسبة بين قوله : « قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم » .

وبين قوله : « فابعثوا أحدكم ... » حيث عقب بالفاء تفريعا على ما قبله وأجاب ببيان الصلة والتناسب بينهما مشيرا الى ما عرف فيما بعد عند البلاغيين المتأخرين بالاسلوب الحكيم ، لأنه لم يسمه بهذا الاسم وان كان تفسيره للآية وذكره بيان التناسب بين المعنيين يشير اليه ، فقد أجابوا أولا عن سؤال أحدهم : « كم لبثتم » بقولهم « لبثنا يوما أو بعض يوم » فهو جواب مبنى على غالب الظن قبل أن ينتبهوا الى حقيقة أمرهم ، فلما نظروا الى طول أظفارهم وأشعارهم عدلوا عن جوابهم السابق المبنى على الظن الى تفويض العلم الى الله تعالى فقالوا « ربكم أعلم بما لبثتم » وذلك من كمال ايمانهم ،

---

(١) سورة الكهف الآية ١٩ .

(٢) الكشاف ٢/٤٧٦ .

ولما رأوا أنهم فى حاجة شديدة الى الطعام قطعوا الحديث عن مدة اللبث وفوضوا علمها الى الله تعالى كأنهم قالوا : فدعوا الخوض فى مدة اللبث فلا يعلمها الا الله تعالى وخذوا فى شىء آخر مما يهمكم ، وهو قريب من الاسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل بغير ما يتطلب تنبيها على أن غيره أولى بحاله ·

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور : « ولولا قولهم : « ربكم أعلم بما لبثتم » لكان قولهم : « فابعثوا أحدكم » عين الاسلوب الحكيم(١) ومنه هذا القبيل قول الشاعر مفتخرا وقد أتت اليه زوجه تشتكى كثرة ضيفانه وما يكلفه ذلك من جهد ومال فأرشدها أن تكف عن ذلك ، وأن تأخذ فى شىء أهم منه وأولى وهو المبادرة بالاسراع فى اعداد الطعام للضيوف القادمين فقال :

أتت تشتكى عند مزاولة القرى
وقد رأت الضيفان ينحون منزلى

فقلت كأنى ما سمعت كلامها
هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

فالشاعر تلقى سؤال زوجه بغير ما يتطلب ، فكأنه لم يسمع منها شيئا وأرشدها - لاسيما فى هذه الحالة التى يقدم فيها الضيفان نحو منزله - الى أن تقوم بواجبها فى اعداد الطعام لهم ، اذ المقام لا يستدعى · الشكوى ·

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٨٤ ·

ومن الجواب المعدول به عن السؤال ما جاء فى حوار موسى عليه السلام مع فرعون فى قوله تعالى : « قال فرعون : وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال : ربكم ورب آبائكم الأولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »(١) فسؤال فرعون فى قوله تعالى « وما رب العالمين » انما هو سؤال عن طلب الماهية ، لأن «ما» و « من » انما يسأل بهما عنها ، كقولك : ما العنقاء ؟ ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن عدل موسى — عليه السلام — الى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى ، وخص تلك الصفات ، لأنه لا يشاركه فيها أحد ، وفيه ابطال لدعواه أنه اله • فالسؤال عن ماهية وكنه رب العالمين لا يمكن الاجابة عنه لأنه من الأمور التى يعجز البشر عن ادراكها ، فالعجز عن الادراك ادراك ، والبحث عن ذات الله اشراك ، وقد يكون السؤال بـ « ما » عن الجنس ، ففرعون جهل جنسه فاستفهم عنه استفهاما عن مجهول من الأشياء •

والى هذا أشار الزمخشرى بقوله : « وهذا السؤال لايخلو اما أن يريد به أى شىء هو من الأشياء التى شوهدت وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشىء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شىء مخالف لجميع الأشياء « ليس كمثله شىء »(٢) فالأجناس محدثة والله تعالى منزه عن الحدوث ، ولما علم موسى جهله بهذا

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٤ — ٢٨ •
(٢) الكشاف ١٠٩/٣ •

السؤال عدل عن الاجابة عنه ، وأعلمه بعظيم قـدرة الله التى تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها ، وهذا السؤال يشير الى انكار فرعون أن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الالهية .
«وقد تضمن جواب موسى عليه السلام - تنبيها على أن الاستدلال على اثبات الخالق الواحد انما يحصل بالنظر فى السماوات والأرض وما بينهما نظرا يؤدى الى العلم بحقيقة الاله الواحد الممتازة عن حقائق المخلوقات ، ولهذا أتبع بيانه بقوله : « ان كنتم موقنين » أى ان كنتم مستعدين للايقان طالبين لمعرفة الحقائق غير مكذبين »(١) فانظروا الى ملكوت السموات والأرض وما بينهما نظرا مؤسسا على قوانين العلم .

عندما سمع فرعون جواب موسى - عليه السلام - ويبدو أن الملأ من قومه كانوا يستمعون هذا الحوار - أعرض عن مواجهة موسى بالخطاب ونظر الى الملأ من حوله قائلا لهم : « ألا تستمعون » ؟ فالاستفهام استفهام تعجب من حالهم كيف لم يستمعوا ما قاله موسى وهم قد استمعوا اليه الا انه - لعنه الله - أراد أن يستثير نفوسهم حتى لا تتمكن منهم حجة موسى - عليه السلام - فنزلهم منزلة من لم يستمع اليه ، وهذا التعجب من حال استماعهم حيث سكتوا ولم يعلقوا على هذا الجواب يقتضى التعجب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب ، فهو كناية عن تعجب آخر(٢) .

ولم يكف موسى - عليه السلام - بالبيان السابق ، وانما

---

(١) التحرير والتنوير ١١٧/١٩ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير .

زاد عليه وصفا آخر أظهر فى التعريف برب العالمين ، لأنه قد يعتقد أحد أن السموات والأرض واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ، ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لأن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته ، وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر(١) .

قال تعالى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فأجاب بالأغلظ والأظهر فى التعريف .

والأقرب اليهم والأيسر فى الاستدلال على الخالق ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه ، وفيه اشارة الى فساد معتقد من يزعمون أن من الآباء القدماء من الفراعنة من هم فى مرتبة الآلهة ممن لقبوا عندهم بأبناء الشمس ، والشمس معدودة فى الآلهة ، ويمثلها الصنم « آمون رع »، لأن الآية شملت عموم الآباء باضافته الى الضمير وبوصفه بالأولين .

وعندما سمع فرعون جواب موسى — عليه السلام — احتد غضبا لما فيه من خروج بعض آبائه المقدسين عن صفة الالهية زاعما أن هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر الا من مختل الادراك ، فلذلك وصفه بالجنون ، وأكد كلامه بحرفى التأكيد « ان » و « اللام » فى قوله تعالى : « قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون » ، لأن حالة موسى لا تؤذن بجنونه ، فكان وصفه بالجنون معرضا للشك من المخاطبين .

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/١١٥ .

فاقتضى المقام التأكيد لازالة ما قد يقع فى نفوس المخاطبين من شك عند وصف موسى - عليه السلام - بهذا الوصف .

وقد يكون وصفه بالجنون لعدوله عن جواب سؤاله فقد سأل فرعون عن الحقيقة والماهية فأجاب موسى بالتعريف بالوصف الخارجى ، فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه وقصد اللعين من اطلاق وصف الرسول على موسى - عليه السلام - التهكم به بقرينة رميه بالجنون المحقق عنده .

ولما رأى موسى - عليه السلام - عدم اقناعهم بما ذكر من الأوصاف الدالة على وجود الله ووحدانيته انتقل الى جواب آخر يلزمهم الحجة ، ولا يمكنهم جحده ، لأنه مشاهد كل يوم مرتين فقال : « قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »(١) .

كما انتقل ابراهيم - عليه السلام - من الاستدلال على وجود الله بالاحياء والاماتة ، حيث رد النمروذ على ابراهيم - عليه السلام - وأجابه بما يكذبه العقل وهو ضد الاسلوب الحكيم وهو الاسلوب الأحمق فقال : « أنا أحيى وأميت » .

انتقل ابراهيم الى المحاجة بما هو أظهر فقال ابراهيم : « فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر »(٢) .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٨ .
(٢) سورة البقرة : ٢٩٥ .

فتحريك الشمس علـى مدارات مختلفة دال بتغيرها عـلى حدوثها وأن لها صانعا قديرا حكيما وهذا الجواب أقوى ظهورا وأبين حجة ، وأقرب متناولا ، ومن ثم كان تذييل الآية بقوله : «ان كنتم تعقلون » أى ان كان لكم عقل فالفعل هنا نزل منزلة اللازم اذ هو أبلغ وأنسب لما قبله من رد نسبة الجنون اليه ، وفيه اشارة الى أنهم مظنته لا هو »(١) .

فأجـوبة موسى - عليه السلام - على فرعون روعى فيهـا التـرقى بحسب اعتبار قـلة النظر وقرب المنظـور فيه ، فان الدلائل المبينة فى السموات والأرض وما بينهما أبعد متناولا من النظر فى دليل أنفسهم وآبائهم فقط ، لأن الأول مشـتمل عليه وعلى الآفاق أيضا ، والثانى أبعد من الثالث ، لأن المنظور فيه فى الثانى : الانتقال من هيئة الى هيئة ، ومن حال الى حال من وقت ولادته الى وقت وفاته فى نفس الناظر وأنفس آبائه، وليس كذلك النظر فى طلوع الشـمس وغروبها فى فصـول السـنة فانه أكثـر ظهورا ، ولذلك انتقـل الى الاحتجـاج به خليل الله فى قوله تعالى : «ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر .. » .

فجواب النمروذ بقوله : « أنا أحيى وأميت يكذبه العقل ، لأن المراد بالاحياء الذى يقصده هو العفو عن القتل ، والمـراد

(١) حاشية الشهاب الخفاجى ١١/٧ .

بالاماتة القتل ، والعفو عن القتل ليس باحياء ، وهذا أمر بدهى غنى عن البيان ، كما أن القتل خلاف الموت اذ القتل فيه نقض للبنية ، والموت سلب الحياة من الجسد بدون نقض للبنية وهذا الجواب فيه دلالة على الحمق ، ولذلك سماه الطيبى : الاسلوب الأحمق وهو ضد الاسلوب الحكيم(١) ، ولما كان كذلك أعرض عنه خليل الله فلم يبطله لأنه باطل فى نفسه وأتى بدليل آخر هو أظهر من الشمس فقد انتقل ابراهيم عليه السلام من مثال خفى وهو الاحياء والاماتة الى مثال جلى • فعلى هذا يكون الترقى فى الاحتجاج الثانى من الأبعد الى الأقرب ، والترقى من الثانى الى الثالث بحسب الظهور •

ومن الجواب المعدول به عن السؤال أيضا على طريقة الاسلوب الحكيم ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون »(٢) • فالسؤال فى قولهم : « من بعثنا من مرقدنا » ، فهم سألوا عن الفاعل أى فاعل بعثهم من رقادهم فحقهم أن يجابوا بذكر الفاعل ، ولكن النظم الكريم عدل عن جوابهم الى ما هو أهم لهم ، وأنسب فى هذا المقام فلا يهمهم فى هذه الحال معرفة الباعث انما الذى ينبغى أن يعرفوه وأن يفاجأوا به هو أن هذا المشهد الذى يعاينوه هو حقيقة ما وعدهم الرحمن به من اثبات أمر البعث الذى أنكروه وكذبوا به رسلهم فيما أخبروهم به عن الله عز وجل فقالوا منكرين له بقولهم : « ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون »(٣) ، وقولهم : « هيهات هيهات لما توعدون ان

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٢/٣٣٧ •

(٢) سورة ياسين آية ٥٢ •

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٨٢ •

هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »(١) .

« فجيء بالجواب على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت اليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به ، وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذى عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث ، ان هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع وهو الذى وعده الله فى كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين »(٢) .

فهو من الاسلوب الحكيم أجابت به الملائكة لمفاجأتهم بالأهوال والأفزاع التى هم مقبلون عليها وبالعذاب الأليم الذى ينتظرهم جزاء كفرهم وتكذيبهم .

وقد يكون هذا من جواب الكفار بعضهم لبعض ، فهم عندما بعثوا من قبورهم ظنوا أنهم كانوا نياما لاختلاط عقولهم نتيجة لدهشتهم وذعرهم تساءلوا : « من بعثنا من مرقدنا » ثم تزول عنهم دهشتهم شيئا فشيئا فيدركون حقيقة أمرهم ويتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا قائلين : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » فعدلوا فى اجابتهم أيضا عن ذكر الفاعل « الباعث » الى بيان حقيقة البعث وما وعدهم الرحمن به فى كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين .

وهنا نقف لنتأمل نظم السؤال والجواب وما ينطوى فيه من أسرار بلاغية يقتضيها السياق .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الكشاف ٣/٣٢٦ .

كلمة « مرقد » قد تكون مصدرا أو اسم مكان فاذا كانت مصدرا كان بمعنى رقاد ، وهى على الأصل لأن المصدر يفرد مطلقا، وان كانت اسم مكان كانت من باب اقامة المفرد مقام الجمع، والمرقد على الوجه الثانى يكون حقيقة لظنهم انهم كانوا نياما فسألوا عمن بعثهم من مرقدهم أى من نومهم ، وعلى الوجه الأول يكون مجازا بناء على ادراكهم لأمر البعث الذى وعدوا به فى الدنيا وكذبوه .

فيكون فى المرقد استعارة أصلية ان كان مصدرا، وتبعية ان كان اسم مكان ، شبه الموت بالرقاد بجامع انتفاء الحركة فى كل أو بجامع الاستراحة من الأفعال الاختيارية فى كل وهى فى المشبه به أشهر وأعرف لتكرره على الحس ، ثم استعير له اسمه ، ثم اشتق من الرقاد بمعنى الموت مرقد على وزن مفعل بمعنى مكان الموت على سبيل الاستعارة التبعية وهى قريبة المأخذ ، لأن الجامع فيها داخل فى مفهوم الطرفين على نحو استعارة الطيران للعدو كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها » فان عدم صدور الأفعال الاختيارية داخل فى مفهوم الموت والرقاد ، كما أن الطيران والعدو يشتركان فى أمر داخل فى مفهومهما وهو قطع المسافة بسرعة ، ولكن الطيران أسرع من العدو(١) .

ويجوز الوقف على اسم الاشارة فى قوله تعالى : « من بعثنا من مرقدنا هذا » على اعتبار أن « هذا » صفة لمرقد أوله

---

(١) راجع بغية الايضاح ١٢٤/٣ .

بالمشتق ، « وما وعد » مستأنف و « ما » على هذا تكون موصولة فى محل رفع بالابتداء ، والخبر مقدر أى الذى وعده الرحمن وصدق فيه المرسلون حق عليكم ، ويجوز الوقف على «مرقدنا» واسم الاشارة مستأنف فى محل رفع مبتدأ ، وما وعد الرحمن وصدق المرسلون خبره سواء كانت « ما » اسم موصول بمعنى الذى أو مصدرية ، ويقول الشهاب الخفاجى : « وفيه من البديع صفة تسمى « التجاذب » ، وهو أن تكون كلمة تحتمل أن تكون من السابق أو اللاحق كما فى شرح المفتاح للسيد الشريف ، ولم أر له مثالا غير هذا »(١) .

وقد يعدل عن الجواب أيضا اذا كان السائل قصده التعنت كقوله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى»(٢) فقد روى أن اليهود بعثت الى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فان أجاب عنها أو سكت فليس بنبى ، وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم ، لأنهم انما سألوا تعجيزا وتغليظا اذ سألوا عن حقيقتها ، وماهيتها ، فعدل المولى عز وجل عن سؤالهم وأمر رسوله بأن يقول لهم : ان الروح من أمر ربى أى من شأنه فمعرفة حقيقتها من شأن الله لا من شأن غيره أى مما استأثر الله بعلمه أو المعنى : انه موجود بأمر الله وتكوينه وتأثيره افادة الحياة للجسد ، فالجواب هنا مجمل ، وكأن هذا الاجمال كيد يرد به على كيدهم ، ولذا قيل : انه من الأسلوب الحكيم كما فى قوله تعالى

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٥ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٧/٢٤٧ .

« يسألونك عن الأهلة » اشارة الى أن حقيقتها لا تعلم ، وانما يعلم منها هذا ، واذا كان السؤال عن قدم الروح وحدوثه يكون الجواب مطابقا للسؤال لفظا ومعنى ومقاما ، لأن قوله تعالى : « من أمر ربى » بمعنى بتكوينه بقوله : « كن فيكون » فيكون الجواب مفيدا حدوثه ، لأن توقف الأمر على الارادة يقتضى حدوثه بنص قوله تعالى : « انما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فان التكوين يقتضى حدوث ما يتعلق به(١) فالروح نفخة من روح الله به يحيا الجسد ويحس ويتنفس٠٠الخ فما دامت الروح متعلقة بذات الله تعالى فهى مما نعجز عن ادراكه كما عجزنا عن ادراك ذات الله والوجه الأول أنسب للمقام ويتفق مع ما روى من سبب النزول كما بينا ٠ وهناك وجه ثالث ذكره الزركشى وهو أضعف من الوجه الثانى وحاصله : « أنهم سألوه عن الروح الذى هو فى القرآن ، فقد سمى الله القرآن روحا فى مواضع من الكتاب ، وعلى هذا يكون الجواب بقوله : « قل الروح من أمر ربى » واقع موقعه من المطابقة اللفظية والمعنوية ، لأنه قال لهم الروح الذى هو القرآن من أمر ربى ، وبما أنزله الله على نبيه ، ويرجع ضعف هذا الوجه الى أن تسمية القرآن روحا ليست مما يتعثر فهمها على المخاطبين الذين هم أرباب الفصاحة والبيان من قريش ، فان تسمية القرآن روح للدلالة على أنه غذاء للأرواح به تسمو حتى تقترب من مصاف الملائكة ، وبفقده تدنو وتنحط الى مدارك الحيوانات ٠

---

(١) راجع حاشية الشهاب الخفاجى ٥٧/٦ ٠

وقيل : الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام فيكون السؤال عنه لذكره أنه منزل عليه فأجيبوا بأنه مخلوق من مخلوقاته،وهذا الوجه ضعيف أيضاً ، وقوله تعالى:«وما أوتيتم من العلم الا قليلا » يتلاءم مع الجواب على الوجه الأول تمام الملاءمة،لأنه يشير الى أن الروح مما لا يعلم بكنهه بل بعوارضه ككونه مخلوقاً لله ، وفى حوار فرعون مع موسى عليه السلام فى سورة طه عندما دعاه موسى وهارون عليهما السلام الى الله الواحد قال اللعين : « فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » فقوله : « من ربكما يا موسى » استفهام حقيقى فيه التعاظم والطغيان ولذا أضاف الرب اليهما ولم يقل : « فمن ربنا » ليسلم له ما ادعاه من الألوهية ، ولذلك كان الجواب فى غاية القوة والبيان والايجاز .

فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا ساطعا على هذا المطلوب أى أعطى خليقته كل شىء يحتاجون اليه ويرتفقون به فأعطى كل شىء شكله وصورته الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار ، وجعل سبحانه الابصار فى قدر العدسة ، ثم أظهر فى تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لا نسبة لها اليه البتة ، وجعل سبحانه تلك القوة الباصرة فى جزء أسود ، وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان لتسترها وتحفظها ، وتصقلها،وتدفع الأقذاء عنها،وأعطى سبحانه الأذن الشكل الذى يطابق الاستماع ويوافقه،وكذلك اليد والرجل واللسان وسائر

الأعضاء ، أو أعطى سبحانه كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجر زوجين ، والناقة والبعير ، والرجل والمرأة ، ولم يزاوج شىء منها غير جنسه ، ولا ما هو مخالف لخلقه(١) .

ولذلك يقول الزمخشرى : ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف، وكان طالبا للحق(٢) .

فلو جاء على مقتضى الظاهر فى الجواب لقال : « رب العالمين » ، ولكنه عليه السلام سلك طريق الارشاد والحجة الدامغة على اسلوب الحكيم . ولما كانت اجابة موسى — عليه السلام — بهذه القوة الملزمة الدامغة خاف فرعون أن يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه ، وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات(٣) فقال : « فما بال القرون الأولى » وفى هذا السؤال مكر ومخاتلة وخداع لأنه يقصد منه صرف موسى عن دعوته ودخوله فى متاهات تاريخية غامضة ، فلم يلتفت موسى — عليه السلام — الى ذلك الحديث ، وأجاب بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما هو بصدده من الدعوة، فرد علم ذلك الى الله تعالى فقال : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

---

(١) الكشاف ٥٣٩/٢ .
(٢) المرجع السابق ٥٣٩/٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ٦٢٥/١٠ .

الفصل الثالث

الجواب بالزيادة عما يطلبه السؤال

قد يطابق الجواب السؤال ويزيد عليه لاقتضاء المقام أياه فيكون مطابقا لمقتضى الحال كما فى قوله تعالى : « ما تعبدون من يعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » « ما » اسم استفهام فى محل نصب لأنه مفعول مقدم بتعبدون وهو واجب التقديم،لأن له صدور الكلام وأتى « بما » دون « من » لأن « ما » يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف فاذا عرف خص العقلاء بـ « من » اذا سئل عن تعيينه ، وقيل : ان السؤال بما عن وصفه كما قيل : ما زيد أفقيه أم طبيب ؟ وقد يكون غرض يعقوب من هذا السؤال اختبار بنيه وامتحانهم ، فهو يريد تقريرهم بالمعبود الحق فأجابوا به وزادوا عما سئلوا عنه فكأن يكفيهم فى الجواب أن يقولوا : نعبد الله وحده لا شريك له ، ولكن الجواب تضمن هذا المعنى وزاد عليه بأن الاله الذى نعبده هو اله آبائك وأجدادك من الأنبياء السابقين ، ونحن نمضى فى عقيدتنا على أساس ثابت لا يتغير ، وهو عبادة الاله الواحد الذى هو الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا فالنظم القرآنى يلفتنا بتقرير وحدة الألوهية الى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلهة ، انما هو اله واحد يعبده جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم .

وقرر الشهاب الخفاجي : « أن قوله تعالى : « الها واحدا » بدل من اله آبائك ... الخ » على منوال قوله تعالى : «لنسفعن

بالناصية ناصية كاذبة » حيث يجوز ابدال النكرة من المعرفة بشرط أن توصف النكرة،وهنا وصفت بالوحدانية كما وصفت بالكذب فى آية العلق ، وفائدة الابدال هنا دفع توهم التعـدد الناشىء من ذكر الاله مرتين ، وبين وجه تكراره بأنه أعيد لأنه لا يعطف على الضمير المجرور بدون اعادة الجار(١) ٠

وجملة : « ونحن له مسلمون » قد تكون معطوفة على جملة « نعبد » فتكون أيضا من الزيادة فى الجواب ، لافادة النص على أن الاسلام بمعنى اسلام الوجه لله واخلاص العبادة له سبحانه هو دين كل الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى : « ان الدين عنـد الله الاسـلام » ٠

ومن الزيادة فى الجـواب حيث ان المقام يتطلب البسـط للاستئناس وازالة ما لحقه من الدهشـة والهيبة قوله تعـالى : « وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها عـلى غنمى ولى فيها مآرب أخرى »(٢) فقوله : « وما تلك بيمينك يا موسى » سؤال والسؤال انما يكون لطلب الفهم،وهو على الله تعـالى محال ، قيل انه اسـتفهام تقريرى والذى يكون لطلب الفهم انما هو الاستفهام الحقيقى ، وهو على الله تعـالى محال ، فان من أراد أن يظهر من الشىء الحقير شيئا عظيما فانه يعرضه على الحاضرين ويقـول لهم انظـروا الى هذا ما هـو ؟ يقررهم به فيقولون : هذا الشىء الفلانى ثم بعد اظهار صنعته الفائقة فيه يريهم التفاوت ، وينبههم على كمال صنعته ٠

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى ٠

(٢) سورة طه الآية ١٧ ، ١٨ ٠

والى هـذا المعنى أشار الزمخشرى بقـوله : « انما سـأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا فى الخشـبة اليابسة من قلبهـا حية نضناضة ، وليقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلـوب عنه والمقلوب اليه ، وينبهه على قدرته الفائقة .

ونظـيره : أن يريك الزراد زبـرة من حديد ويقـول لك ما هى فيقول : زبرة حـديد ، ثم يريك بعد أيام لبوسـا مسردا فيقـول لك هى تلك الزبرة صـيرتها الى ما تـرى من عجيب الصنعة وأنيق السرد »(٢) فالله تعالى لما أراد أن يظهـر من العصا تلك الآيات العظيمة كانقلابها حية وانفلاق البحـر وانفجار الحجر بضربها ، عرضها على موسى أولا ليعلم أنه يظهر الآيات العظيمة من شىء حقير ، والغرض من ذلك التنبيـه على كمال قدرته الباهرة فى اظهار تلك المعجزات العظيمـة عـلى يد موسى عليه السلام فى هذا العويد الذى بيده ، وعلى هذا كان يكفى فى الجواب أن يقر بأنها « عصا » ولكنه زاد فى الجـواب فذكر منافعها تفصيلا بقوله : « أتوكأ عليها ، وأهش بهـا على غنمى » واجمالا بقوله : « ولى فيها مآرب أخرى » .

وقد ذكر البـلاغيون والمفسرون آراء متعددة فى فـائدة الاطناب بالزيادة فى الجواب ، فقال البلاغيون : ان القصد من وراء هذا البسط بالزيادة هو أن الاصغاء فيه من السامع مطلوب للمتكلم ومحبوب له لكون السـامع يبتهج بسماعه الخطـاب ، وتفزع بمكالمته مهج الألباب ومن هذا المعنى يطـال الكلام مـع

(٢) الكشاف ٢/٥٣٣ .

الأحباء وأشراف القدر تعظيما بكلامهم وتشرفا بخطابهم وتلذذا بسماعهم »(١) ٠

وقالوا أيضا « ان السؤال بـ « ما » عن الجنس فلم أجاب بالوصف فى قوله : « أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ٠٠ » وكان يكفى فى الجواب أن يقول : « عصا » فزاد المبتدأ والاضافة والأوصاف ، ولا يصح أن يجاب بالصفة عن السؤال عن الجنس لأنها غير مسئول عنها فى الجواب ، والجواب أن «ما» عند السكاكى كما تكون للسؤال عن الجنس قد تكون للسؤال عن الصفة فلعل موسى ـ عليه السلام ـ جوز أن يكون السؤال بها عن الجنس ، فأجاب بقوله « هى عصاى » أى هى جنس هذا الفرد ٠

ثم جوز ثانيا أن يكون السؤال بها عن الوصف فأجاب بالصفة بقوله : « أتوكأ عليها ٠٠٠ الخ » فجمع بين السؤال عن الجنس والجواب عن السؤال عن الصفة احتياطا لاحتمال السؤال لأن يكون عن الجنس وعن الصفة »(٢) ٠

وعلى رأى الدسوقي لا يكون فى الجواب زيادة عما يتطلبه السؤال فيكون مطابقا له ، ويترتب عليه أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن جازما بمقصود المولى ـ عز وجل ـ من السؤال وحاشاه أن يكون كذلك وهو المبلغ عن الله عز وجل ، فأن

---

(١) انظر مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢٨٥/١ ضمن شروح التلخيص ٠

(٢) حاشية الدسوقى الموضع السابق ضمن شروح التلخيص ٠

المتصدى للبلاغ عن الله ـ عز وجل ـ لابد أن يكون عالما بمقصود مبلغــه ، والا حـدث اضطراب فيمـا يبلغه للناس فيما جـاءه من عند الله ٠

ويرى بعض المفسرين أن السؤال لم يكن عن وظيفة العصا فى يده انما كان عمـا فى يمينه ، ولكنـه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل فهى واضحة انما هى عن وظيفتها معه فأجاب ٠٠ ذلك أقصى ما يعرفه موسى عن تلك العصا : أن يتوكأ عليها ، وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم ـ وقـد كان يرعى الغنم لشعيب عليه السلام »(١) ٠

وهذا الرأى قريب من سـابقه ، وان كان أبعد منـه فى القبول لأنه يفيد أن الله تعالى سأله عن شىء معين وأجاب موسى ـ عليه السلام ـ عن شىء آخر مما يفيد ـ وحاشاه ـ عدم ادراكه لمقصود المولى عز وجل من السؤال ، وهذا لا يليق بالأنبيـاء المرسلين الذين حفوا بالعصمة من الوقوع فى الزلل ٠

ويـرى القرطبى أن فى جواب موسى ـ عليه السـلام ـ زيادة عما سئل عنه لأنه لما قال : « وما تلك بيمينك يا موسى » ذكر معانى أربعة ، وهى اضافة العصا اليه ، وكان حقـه أن يقول : « عصـا » ، والتـوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة ٠ فذكر موسى من منافع عصاه معظمها وأجمل سائر ذلك(٢) ٠

وقد يكون سبب الاجمال لرجاء أن يسأله ربه عن تـلك

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٣٣٢/٤ ٠
(٢) انظر تفسير القرطبى ٤٢٢٦/٦ ٠

المآرب فيسمع كلام الله تعالى مرة أخرى وتطول المكالمة بعد ذلك فان الحبيب لا يقطع الحديث مع حبيبه ولا يمل منه مهما طال .

ومن الزيادة فى الجواب قوله تعالى : « ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين »(١) فابراهيم - عليه السلام - سأل أباه وقومه بقوله « ما تعبدون » ، وكان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا « أصناما » ولكنهم أطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحا به وافتخارا ، وقوله : « فنظل » بمعنى : فندوم عليها لا على غيرها عاكفين .

ويقول الزمخشرى : فان قلت : ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا « أصناما » كقوله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(٢) .

وقوله : « ماذا قال ربكم قالوا الحق »(٣) وقوله : « ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا »(٤) ؟ قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب ابراهيم ، وعلى ما قصدوه من اظهار ما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار ، ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم « نعبد » « فنظل لها عاكفين » ، ولم يقتصروا على زيادة «نعبد» وحده

(١) سورة الشعراء ٧٠ ، ٧١ .
(٢) سورة البقرة : ٢١٩ .
(٣) سورة سبأ آية ٢٣ .
(٤) سورة النحل الآية : ٣٠ .

ومثاله : أن نقول لبعض الشطار : ما تلبس في بلادك ؟ فيقول ألبس البرد الأتحمي فأجر ذيله بين جواري الحي(١) .

وسؤال ابراهيم — عليه السلام — القصد منه التعجب والانكار ، لأنه عليه السلام عالم بما يعبدونه ، ولكنه يستفهم متعجبا ومنكرا لاتخاذهم هذه الحجارة آلهة يعبدونها من دون الله ، وقد رتب ابراهيم — عليه السلام — على اجابتهم سؤالا آخر يحمل معنى التهكم والانكار بقوله : « هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون » ؟ بمعنى هل يسمعون دعاءكم أو بمعنى « هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم ، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعا مع ايقاعه في « اذ » على حكاية الحال الماضية ، لأن القصد هو استحضار لما حدث منهم ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها » فالشيء المنكر الفظيع تأباه الفطر السليمة وتسترذله العقول النيرة ، ولما أفحمهم ابراهيم عليه السلام بهذه الأسئلة وأقام عليهم الحجة ، عدلوا عن اجابته عما سأل الى جواب آخر ألغوا فيه عقولهم ، ولجأوا الى التقليد فقالوا مضربين عن اجابة سؤاله : « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » انه جواب مخجل ، ولكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه في كل زمان لأنهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول ، فاذا تكلموا كشفوا عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا تفكر ، وهم يعلمون أن قصد ابراهيم — عليه السلام — من سؤاله انما هو التهكم والاستنكار(٢) .

---

(١) الكشاف ١١٦/٣ .

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٦٠٢/٥ .

ومن الجواب بالزيادة لافادة التعميم قوله تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »(١) .

الاستفهام في الآية مستعمل في التقرير والالجاء لكون ذلك لا ينازعون فيه ، وأطلقت ظلمات البر والبحر مجازا على المخاوف الحاصلة فيهما وقد تكون الظلمات على حقيقتها فتكون ظلمة البر يراد منها ظلمة الليل التي يلتبس فيها الطريق للسائر ، والتي يخشى فيها العدو للسائر والقاطن وظلمة البحر يخشى فيها الغرق والضلال والعدو ، فحينما يقع الانسان في ضيق أو تتتابه المخاوف من الوقوع في المهالك فلا يجد له مفزعا الا الله يتضرع اليه بالدعاء أو يناجيه في صمت ، هنا تبرز الفطرة النقية الخالصة بعد زوال ما ران عليها من ركام الأوزار التي حجبتها حينا من الزمن فكانت كالذهب الخالص من زبده عندما يصهر في النار ، هنا تواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها حقيقة الألوهية الواحدة فتتجه اليه سبحانه وحده لأنها تدرك سخافة فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ، وفي هذه اللحظات التي يشتد فيها الكرب عليهم يبذل المكروبون الوعود المؤكدة بالقسم في قوله تعالى : « لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

وقوله تعالى : « لنكونن من الشاكرين » أبلغ من قولك : «لنشكرك» على منوال قوله تعالى : « قال اني لعملكم من

---

(١) سورة الأنعام الآية ٦٣ .

القالين »(١) وقوله تعالى « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين »(٢) لأن ما عليه النظم يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة الشاكرين فيفيد أنه شاكر افادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التى هى اثبات الشيء باثبات ملزومه ، وهى أبلغ من التصريح يقول الزمخشرى : قولك : فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم ، لأنك تشهد له بكونه معدودا فى زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم فى العلم(٣) .

وجملة « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » هى جملة الجواب ، وكان يكفى فى الجواب أن يقال : « قل الله » بحذف المسند وهو الجملة الفعلية « ينجيكم منها » لدلالة ما تقدم عليها ، ولكنه ذكرها لعطف جملة عليها زائدة على الجواب وهى قوله تعالى : « ومن كل كرب » أى وينجيكم من كل كرب لافادة التعميم ، وأن الاقتصار على ظلمات البر والبحر بالمعنيين لمجرد المثال وقد لقن المولى عز وجل رسوله الجواب ، لأنه لا يسعهم الا الاعتراف به .

وقدم المسند اليه على الخبر الفعلى لافادة الاختصاص أى الله ينجيكم لا غيره ، ولأجل ذلك صرح بالفعل المستفهم عنه ولأجل عطف جملة خبرية زائدة على الجواب كما ذكرنا ،

---

(١) سورة الشعراء : ١٦٨ .

(٢) سورة الشعراء : ١٣٧ .

(٣) الكشاف ١٢٥/٣ .

و « ثم » فى قوله تعالى « ثم أنتم تشركون » مثلها فى قوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » فى أول سورة الأنعام للترتيب الرتبى المفيد للاستبعاد أى استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ، واستبعاد أن يعودوا للشرك بعد استجابة الله لهم الدعاء بعد أن تخلصت فطرتهم من الأدران والأوزار حين وقوع الكرب ، فهتفت من أعماقها بالوحدانية، « وتقديم المسند اليه على المسند فى قوله تعالى « ثم أنتم تشركون » لمجرد الاهتمام بخبر اسناد الشرك اليهم ، أى أنتم الذين تتضرعون الى الله باعترافكم تشركون به من قبل ومن بعد ، وجيء بالمسند فعلا مضارعا ، لافادة تجدد شركهم وأن ذلك التجدد والدوام عليه أعجب »(٢) .

ومن الجواب بالزيادة أيضا قوله تعالى : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون »(٣) .

يقول الامام الألوسى - رحمه الله تعالى : قل نعم أى تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ، والخطاب فى قوله سبحانه « وأنتم داخرون » لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة فى موضع الحال من فاعل ما دل عليه « نعم » ، أى تبعثون كلكم والحال أنكم صاغرون أذلاء ، وهذه الحال زيادة فى الجواب نظير ما وقع فى جوابه عليه الصلاة والسلام لأبى بن خلف حين جاء بعظم

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٧/٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) سورة الصافات الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

قد رم وجعل يفته بيده ويقول : يا محمــد ، أترى الله يحيى هذا بعد ما رم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم له — على ما فى بعض الروايات نعم ويبعثك ويدخلك جهنم(١) ٠

وهنا نقف مع أسرار نظم السؤال والجواب لنقف على بيان مدى مطابقتهما لمقتضى الحال ٠ أصل الســؤال هنا : « أنبعث اذا متنا وكنا ترابا وعظاما » ، ولكن النظم القرآنى فيما يحكيه عن هؤلاء المنكرين للبعث غاير هذا النظم فقدم الظرف عــلى عامله ، وكررت همزة الاستفهام الانكارى مبالغة فى الانكار وقد تضافرت عوامل أخرى مع التكرار مؤدية لهذه المبــالغة ، وهى تأكيد جملة الانكار بان واســمية الجملة حيث عــدل عن الجملة الفعلية الى الاسمية ، واللام الداخلة على الخبر ، ممــا يدل على أن البعث — فى زعمهم — مستنكر فى نفسه ، وهو فى هذه الحالة أشد استنكارا يعنى حال موتهم وصيرورتهم عظاما ورفاتا ، وفى قوله تعالى « أو آباؤنا الأولون » أتى بالهمزة هنا أيضا لزيادة الاستبعاد ، لأن اعــادة من مات قبلهم أبعــد فى عقولهم القاصرة ممن مات فى زمانهم ، وكان الجواب بقــوله « نعم » فقط ،وانما اكتفى به من غير اقــامة دليل للمنكرين ، لأنه تقدم البرهــان عليه فى قــوله : « فاستفتهم ٠٠ الخ » ، ولأن المخبر علم صدقه بمعجزاته الواقعة فى الخــارج التى دل عليها قوله : « واذا رأوا آية ٠٠ الخ » وهزؤهم بها،وتسميتهم لها سحرا عناد ومكابرة لا تضر طالب الحق ، ولا الناظر له بعد

---

(١) روح المعانى للألوسى ٧٨/٢٣ (دار الفكر بيروت ١٩٨٣) ٠

ظهوره »(١) ، فقد نـزلوا فى الجواب منزلة غير المنـكرين مع انهم فى واقع الأمر منكرون ، لظهور الأدلـة العقلية والنقلية عـلى اثبات أمر البعث ، فلـديهم من الدلائل الواضـحة ما لو تأملوها ونظروا اليهـا بعين الانصاف لارتدعوا ورجعـوا عن انكارهم ثم ان السياق القرآنى بين لهم قبل ذلك آثار قـدرة الله تعالى فيما حولهم وفى ذات أنفسهم وهم عن ذلك غافلون ، لقد غفلوا عن آثار هـذه القدرة فى خلق السـموات والأرض وما بينهما ، وفى خلق الكواكب والشـهب ، وفى خلق الملائكة والشياطين ، وفى خلقهم هم أنفسهم من طين لازب .. غفلوا عن آثار القدرة فى هذا كلـه ، ووقفوا يستبعدون عـلى هذه القدرة أن تعيدهم اذا ماتوا وصاروا ترابا وعظاما هم وآباءهم الأولين ، وما فى هذا البعث والاعادة من غرابة على تلك القدرة

نقصان الجواب عن السؤال :

مثاله قوله تعالى فيما يحكيه عن مشركى مكة : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى »(٢) أى ائت بقرآن ليس فيـه سب آلهتنا أو بدله بأن تجعـل مكان آية عذاب آية رحمة ، وليس فيه ذكر آلهتنا ، فأمره الله بأن يجيب عن التبـديل ، وطـوى الجـواب عن الاختـراع وانما اكتفى بالجواب عن التبديل ، فهم قد اقترحوا عليه أحد أمرين الاتيان بقرآن آخر والتبديل فأجاب عن التبديل فقط بحسب الظاهر ، لأن الاتيان بقرآن آخر غير مقدور عليه فلم يحتج الى الجواب عنه ، لأنه اذا لم يكن له التبديل لم يكن له الاتيان بقرآن آخر بطريق

---

(١) راجع حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٢٦٥/٧
(٢) سـورة يونس آية ١٥ .

الأولى فهو جواب عن الامرين بحسب المآل والحقيقة وهم يعلمون أن الاتيان بمثله غير مقدور(١) .

وفي هذا الجواب بيان لمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي البلاغ عن الله فقط لا التصرف في أمر الوحي بتبديل أو تغيير ، ومن ثم جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي ، وهو ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسي أي ما يكون التبديل ملكا بيدي وجاءت جملة : « ان أتبع الا ما يوحي الى » بطريق القصر بالنفي والاستثناء تعليلا لجملة « ما يكون لى أن أبدله » ، ولذلك فصلت عنها لحصول الترابط المعنوي بينهما ، فالعلة لا تنفصل عن معلولها ، فقد قصر تعلق الاتباع على ما أوحاه الله اليه قصرا اضافيا أي لا أبلغ الا ما أوحي الى دون أن يكون المتبع شيئا مخترعا حتى أتصرف فيه بالتبديل والتغيير ، وقد سلك النظم القرآني طريق القصر بالنفي والاستثناء لأنه أقوى طرق القصر ، والقصر في حد ذاته تأكيد فيكون الاتيان بجملة القصر بالنفي والاستثناء تأكيد على تأكيد اذ هو يأتي في مقام المخاطب المنكر أو المنزل منزلة المنكر ، اذ ان اقتراحهم هذا بتبديل القرآن أو تغييره يجعلهم بمثابة المنكرين له ، ثم تأتي الجملة التي ختمت بها الآية تعليلا للجملة السابقة وهي قوله تعالى : « اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » ، ولذلك فصلت عنها كما بينا .

وقيل : ان السر في اقتصار الاجابة على التبديل دون التغيير بمعنى الاختراع هو أن التبديل قريب من الاختراع فلهذا اقتصر على جواب واحد لهما .

---

(١) انظر : حاشية الشهاب الخفاجي ١٤/٥ .

الفصل الرابع

السؤال والجواب بين الذكر والحذف

من تمام مطابقة الجواب للسؤال أن يعاد في الجواب نفس سؤال السائل ليكون وفقا له ومنه قوله تعالى : « أئنك لأنت يوسف قال : أنا يوسف »(١) ، و « أنا » في جوابه ـ عليه السلام ـ هو « أنت » في سؤالهم(٢) وهو استفهام تقريري ، ويحمل معنى التعجب والاستغراب ، ولذلك أكدت جملة الاستفهام على خلاف المعهود منه ، لأن التأكيد يقتضي التحقق المنافي للاستفهام ، ويبدو أن التأكيد هنا مراعى فيه حال المتكلمين السائلين تجاه هذا الموقف المفاجىء العجيب ، فأكدوا سؤالهم بأن واللام واسمية الجملة والضمير الذي يجوز فيه أن يكون فصلا ، ولا يجوز أن يكون توكيد لاسم « ان » ، لأن هذه اللام لا تدخل على التوكيد ، ويبدو أنهم لما سمعوا منه قوله : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون » تنبهوا وأمعنوا النظر فيه فعرفوه بعلامة كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء أو لما رأوا في روائه وشمائله ، وقيل : تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم، فأكدوا سؤالهم لأهميته ولمزيد من التثبت .

وأعاد يوسف ـ عليه السلام ـ سؤالهم في الجواب للاستئناف ، وكأن يمكن أن يقال في الجواب « أنا هو » ولكنه

---

(١) سورة يوسف الآية : ٩٠ .

(٢) راجع البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٦/٤ .

ـ عليه السلام ـ عدل عن الاضمار الى اسمه الظاهر تعظيمـا للقصة كما قال القرطبى(١) أو تعظيما لما نزل به من ظـلم اخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر فكأنه قال : أنا الـذى ظلمتمونى عـلى أعظم الوجوه ، والله تعالى أوصلنى الى أعظـم المناصب ، أنا ذلك العاجز الذى قصدتم قتله والقاءه فى البئر ثم صرت كما ترون(٢) .

وفى اجـابة يوسف ـ عليه السلام ـ زيادة عما سـألوه عنه وهى قوله : « وهذا أخى قد من الله علينا » فهم لم يسألوه عن أخيه لأنه كان معلوما لهم ، ولكن يوسف ـ عليه السـلام ـ آثر ذكره لأنه كان فى ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه حيث كان مظلـوما مثلـه .

ثم صار منعما عليه من قبل الله تعالى كما رأوا ، فالمقـام يقتضى ذكره ، وقوله : « أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » تعليل لقوله « قد من الله علينا » ولذلك فصلت عنها لما بينهما من الارتباط المعنوى .

وفيها أيضا تعريض لاخوته بأنهم لم يخافوا عقاب الله ولم يصبروا على طاعة الله وطاعة أبيهم ، وعن المعصية اذ فعلـوا ما فعلوا ، وفى الآية وضع الظـاهر موضع المضمر فى قـوله تعالى : « ان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، فوضـع المحسنين موضع الضمير لاشتمال الاحسان على المتقين والصابرين(٣) .

---

(١) راجع الكشاف ٣٤٢/٢ ، والقرطبى ٣٤٨٥/٥ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٤٢/٩ .

(٣) انظر : حاشية الشهاب ٢٠٤/٥ والكشاف ٣٤٢/٢ .

ومن اعادة السؤال فى الجواب أيضا قوله تعالى : « أأقررتم وأخذتم على ذلك اصرى ، قالوا أقررنا » ولكن هذا الجواب قد حـذف منه جملة لدلالة ما تقـدم عليها ، اذ التقدير : قـالوا أقررنا وأخذنا اصرك على ذلك كله ، فكأن ينبغى على بدر الدين الزركشى أن ينبـه على حذف هذه الجملة فى الجواب ، فاعادة السؤال فى الجواب هنا ليس كاعادته فى الآية السـابقة ، لأن يوسف عليه السلام أعاد فى جوابه على اخوته نفس سـؤالهم وزاد عليه كما بينا وهنا فى هذه الآية أعاد السؤال فى الجواب بذكر جملة منه وحذف جملة أخرى لدلالة ما تقدم عليهـا فلم يعد الجواب بتمامه •

ومن اعادة السؤال فى الجواب قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده » المقصود من السؤال فى الآية نفى الهية الشركاء بأنهم لايبدأون الخلق ولا يعيدونه ، والاله الحق يجب أن يكون مبتدئا ومعيدا، فان قيل : الاحتجاج عليهم بنفس اعادة الخلق كيف ينهض عليهم مع أنهم غير معترفين بالاعادة ؟ والجواب : أن منكر الاعـادة مـكابر فلا التفـات الى انكاره ، لأنهم ينـكرون أمرا مسـلما معترفا بصحته عند العقلاء فنزلوا لذلك منزلة غير المنكرين ، وذلك لكثـرة الأدلة عـلى الاعادة التى لو تأملـوها لارتدعـوا ورجعوا عن انكارهم لها ، فهم اذا كانوا قد اعترفوا ببدء الخلق، فانهم يجب عليهم بالقياس العقلى الاعتراف بالاعادة بل هى أهون عليه سبحانه وتعالى •

والمشركون لا يمكنهم الاجـابة الصـحيحة عن هذا السؤال لفساد اعتقادهم أو أن المتكلم وهو الرسول ـ صلى الله

عليه وسلم — الذى أمر من قبل الله عز وجل أن يوجه اليهم هذا السؤال ليس بطالب للجواب لأنه لا يسعهم الا الاعتراف بذلك ، فهو فى معنى نفى أن يكون من آلهتهم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، فلذلك أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — بأن يرتقى معهم فى الاستدلال بقوله : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » فصار مجموع الجملتين قصرا لصفة بدء الخلق واعادته على الله تعالى قصر افراد أى دون شركائكم أى فالأصنام لا تستحق الالهية ، والله منفرد بها(١) .

وعلى ما ذكره الشيخ الطاهر بن عاشور لا يكون قوله تعالى : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » جوابا عن السؤال السابق ، لأن السائل ليس بطالب للجواب ، وانما هو استدلال آخر على اثبات ألوهية الله ووحدانيته سبحانه ونفى الهية الشركاء بطريق الترقى فى الاستدلال ، أى أنه استدلال على الهيته تعالى وانه الذى يستحق العبادة بأنه المبدىء المعيد بعد الاستدلال على نفى الهية الشركاء .

ويقول : ما الذى يمنع أن يكون استدلالا وجوابا فى نفس الوقت هل يوجد تعارض بينهما الجواب : لا ، ثم ان حمل التركيب على الحصر كما بينا يساعد على صحة الاستدلال والجواب معا فيصير : الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء ونظيره قوله تعالى : « الله يبسط الرزق » أى لا غيره .

والزمخشرى يرى أن هذا التركيب جواب فقط أمر الله

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٦١ .

رسوله بأن ينوب عنهم فى الجواب ، يعنى أنه لا يدعهم للجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم(١) .

وعلى الرغم من ظهور هذه المعانى المستفادة من التـركيب فان الامام بدر الدين الزركشى يرى أن هذا الجواب الذى أمر الله رسوله بأن يقوله ليس جواباً عن السؤال السابق ، وانما هو جواب عن سؤال محذوف ، ثقة بفهم السامع بتقديره معللا ذلك بأنه لا يسـتقيم أن يكون السـؤال والجـواب من واحـد فتعين أن يكون : « قـل الله » جواب سؤال ، كأنهم سألوا لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « من يبدأ الخلق ثم يعيده » فأجـابهم الله عز وجـل : « قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده » فترك ذكر السؤال .

وفيما قاله الزركشى نظر ، لأنه ما الذى يمنع أن يـكون الله أمر رسـوله بأن يقـول لهم السؤال والجـواب ، ان عدم استقامة كون السـؤال والجواب من واحد قد يكون صـحيحا فيما لو كان الاستفهام حقيقيا ، لأنه كيف يسأل ويجيب فى آن واحد ، فان من شأن السائل فى الاستفهام الحقيقى أن يـكون جـاهلا بما يسـأل عنه ، ومقتضى اجـابته أنه عالم به فحـدث التناقض ، أما بالنسبة للاستفهام المجازى فان السائل لا يكون جاهلا بما يسأل عنه ، وانما هو عالم به ، ولكنه يسأل أو يورد كلامه فى صـورة سؤال لغـرض من الأغراض البـلاغية التى يقتضيها المقام ، وتفهم من السياق بمعونة القرائن ، ومن ثم

---

(١) الكشاف ٢٣٦/٢ .

اذا سأل وأجاب فلا تناقض ، لاسيما في الاستفهام التقريرى ، ثم ان المخاطبين الموجه اليهم السؤال قد يكونون معاندين ومكابرين وجاحدين ، فلا يعتمد على اقرارهم لأنه بعيد عن الصواب ، ولذلك يقول الزمخشرى : « أمر الله رسوله بأن يتوب عنهم فى الجواب : يعنى أنه لا يدعهم للجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم »(١) .

وقد وقع فى النظم القرآنى أن الله أمر رسوله بأن يسأل وأمره بأن يجيب على منوال هذه الآية ، وذلك فى قوله تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »(٢) .

وفى قوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم »(٣) وفى قوله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون »(٤) .

وجعل الامام الزركشى قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق »(٥) نظيرا للآية السابقة

---

(١) الكشاف ٢/٢٣٦ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٦٣ ، ٦٤ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٩ .
(٤) سورة الأنعام الآية : ٩١ .
(٥) سورة يونس الآية ٣٤ .

والتى نحن بصدد الحديث عنها ، ويقال فيها مثل ما قيل فى نظيرتها ، هذا بالاضافة الى أننى - على الرغم من كثرة ما قرأت فى كتب التفسير - لم أجد أحدا يذهب الى ما قاله الزركشى .

يتضح مما سبق أنه يصح أن يكون السؤال والجواب من واحد ، فالله تعالى أمر رسوله أن يسألهم سؤالا تقريريا على جهة التوبيخ ، وأمره أيضا أن يجيب عليه باثبات قصر المبدأ والمعاد على الله تعالى ونفيه عن الشركاء ، ولم يرد المولى عز وجل منهم الجواب لعلمه سبحانه بعنادهم ومكابرتهم وجحودهم .

اثبات الفعل أو حذفه فى الجواب :

من المعلوم أنك اذا قلت : من جاء ؟ يجوز لك فى الجواب أن تقول « زيد » بحذف الفعل لوجود ما يدل عليه فى السؤال ويجوز أن تذكر الفعل فى الجواب فتقول : جاء زيد ، وقد رجح الامام الزركشى الحذف على الاثبات وذلك لما يفيده الحذف من فائدتين لم توجدا فى الذكر :

أحدهما : أن فى حذف الفعل وابقاء الاسم « الفاعل » تنصيصا على الجواب فلا يحتمل غيره .

وثانيهما : أنك حددت المطلوب على جهة التخصيص فى الجواب بتعيينك الاسم المسئول عنه وافراده من العموم الذى دلت عليه « من » فى السؤال ، فأنت اذا قلت : « زيد » فى جواب من جاء كان نصا فى أنه جواب ، وفى العموم الذى دلت عليه « من » ، وكأنك قلت : الذى جاء زيد فيفيد الحصر بتعريف الطرفين ، وهاتان الفائدتان انما حصلتا من الحذف ، أما اذا

ذكرت الفعل فى الجـواب فقلت : « جاء زيد » فى جـواب من سألك فقال : « من جاء » لم يكن هذا نصا فى أنه جواب ، بل هو محتمل أن يكون جوابا وأن يكون كلاما مبتدأ(١) .

وباستقرائنا للأسـئلة والأجوبة فى القـرآن الكريم التى يسأل فيها عن الفاعل وجدنا حذف الفعل واثباته فى الجواب، والحذف أكثر من الاثبات ممـا يدل على أنه الأصـل ، وليس معنى هذا أن حذف الفعل فى الجواب أبلغ من الاثبات ، فكل منهما بليغ فى موضعه وفى سياقه الذى جاء فيه لأنه قد يخالف الأصل لسر بلاغى يقتضيه المقام فنجد أن السؤال عمن خلق السموات والأرض تـكرر فى القرآن أربع مرات فى واحـدة منها ذكر الفعل فى الجواب ، وفى الثلاثة الأخرى حذف الفعل فى الجواب هى على الترتيب قوله تعالى : «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله »(٢) وقـوله تعـالى : « ولئن سـألتهم من خلق السـموات والأرض ليقـولن الله » (٣) وقـوله تعالى : « ولئن سـألتهم من خـلق السموات والأرض ليقولن الله »(٤) .

أما الآية التى ذكر فيها الفعل فى الجواب فهى قوله تعالى : « ولئن سـألتهم من خلق السـموات والأرض ليقـولن خلقهن العزيز العليم »(٥) .

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن ٤٨/٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦١ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٤) سورة الزمر الآية ٣٨ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٩ .

وهذه الآية التى ذكر فيها الفعل تختلف فى سياقها ونظمها من الآيات الثلاث السابقة ، لأن الجواب هنا أتبع بصفات متعددة للخالق عز وجل ، هذه الصفات المتعددة يناسبها وصف الله عز وجل « بالعزيز العليم » فالعزيز هو الغالب ففيه اشارة الى كمال القدرة ، والعليم فيه اشارة الى كمال العلم ، واذا حصل كمال العلم والقدرة للموصوف كان قادرا على خلق جميع الممكنات، فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفا بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل ، وهى قوله تعالى « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ٠ والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون »(١) ٠

وبناء على هذا نتفق مع المرحوم الشهيد سيد قطب فيما قاله عن وصف الله « بالعزيز العليم » فى أنهما ليستا من قول المشركين جوابا عن السؤال يقول : «وواضح أن هاتين الصفتين « العزيز العليم » ليستا من قولهم فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو الله ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الاسلام ٠ هذه الصفات الايجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثرا فعالا فى حياتهم وحياة هذا الكون،كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك ولكنهم

---

(١) سورة الزخرف الآيات من ٩ الى ١٤ ٠

كانوا يتخذون من دونه شركاء ، لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ... والقرآن هنا يعلمهم أن الله الذى يعترفون بأنه خلق السموات والأرض هو «العزيز العليم»(١)

فالمشركون لما كانوا لا يعرفون الله بصفاته ، وانما عرفوه باسمه العلم على ذاته المقدسة وهو لفظ الله جل جلاله الجامع لسائر أسمائه وصفاته الحسنى كان جوابهم به فى المواضع الثلاثة التى حذف فيها الفعل لوجود ما يدل عليه فى السؤال ، وفى هذا الموضع ذكر الفعل وحذف الموصوف من كلامهم وأقيمت الصفات المذكورة فى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد فى الظاهر ، ولكن فى حقيقة الأمر - كما يقول ابن المنير - « أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله تعالى،فالذى هو من قولهم « خلقهن » ، وما بعده من قول الله عز وجل،لأنه سبحانه أعلم بالأوصاف المناسبة للفظ الجلالة فى هذا المقام ، وأما هم فلم يكونوا يعرفون الله بصفاته كما قال المرحوم سيد قطب،ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم فيقول: أكرمنى زيد،فتقول أنت واصفا للمذكور الكريم الجواد الذى من صفته كذا وكذا،ثم لما وقع الانتقال من كلامهم الى كلام الله عز وجل جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان فى البلاغة ، فجاء أوله على لفظ الغيبة ، وآخره على الانتقال منها الى التكلم فى قوله : «فأنشرنا»(٢) على طريق الالتفات بالانتقال

(١) فى ظلال القرآن ٣١٧٧/٥ .

(٢) انظر حاشية الانتصاف على الكشاف لابن المنير الاسكندرى ٤٧٩/٣ .

من الغيبة الى التكلم باسناد الفعل الى «نا» وهو ضمير التعظيم الدال على عظمة القدرة الالهية فى الانتشار وهو احياء الأرض بعد موتها لأن فيه دليلا حسيا بالمشاهدة على قدرة الله على البعث الذى ينكرونه، وكذلك كان تذييل الآية «كذلك تخرجون» ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الاماتة لهذه الأرض التى أنشرت بعد ما كانت ميتة •

ويرى ابن القيم أن النظم الكريم قد سلك فى هذا الجواب مسلك الاستطراد ، وهو استطراد من الشىء الى لازمه ، ففى قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » •

استطراد من جوابهم الى قوله : « الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها ••• الى قوله : وانا الى ربنا لمنقلبون » ثم عاد الى المعنى الأول فقال • « وجعلوا له من عبادة جزءا ان الانسان لكفور مبين » لأن السباق فى جحدهم وانكارهم لألوهية الله ووحدانيته ، وتكذيبهم الأنبياء والرسل مع اعترافهم بتوحيد الربوبية لقولهم « خلقهن الله » ، ولكنه انعطف من قولهم انعطافا بسيطا مستطردا الى دلائل وحدانيته من حولهم وهو جعل الأرض مهدا وتيسير السبل فيها ، وانزال السماء وخلق الأزواج الى آخر تلك الآيات الدالة على عظمته ووحدانيته لما لزم الأمر ذلك ليقيم الحجة عليهم ، وهذه هى فائدة الاستطراد فى الآية ، ولذلك يقول : « وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير

له واقامة الحجة عليهم »(١) ثم عاد الى ما استطرد منه .

وعلى هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام - قال « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى »(٢) جوابا عن سؤال فرعون الذى حكاه الله عنه بقوله : « فما بال القرون الأولى » وهنا نجد أن فرعون لما أفحم بالجواب السابق من موسى عليه السلام عندما سأله فرعون بقوله : « فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » لما فيه من غاية البلاغة والايجاز .

يقول الزمخشرى : ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الانصاف ، وكان طالبا للحق »(٣) ، فلما ألزم فرعون وأفحم بهذا الجواب خاف فرعون أن يزيد موسى عليه السلام - فى الاستدلال فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات ، فالمسئول عنه فى قوله : « فما بال القرون الأولى » حالهم فى الآخرة على جهة التفصيل لا الاجمال، لأنه أى الاجمال سبق فى قوله : « انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى » ولذا قرنه بالفاء لأنه تفصيل متفرع على ذلك الاجمال(٤) وقد أراد اللعين من وراء هذا التفصيل أن

---

(١) انظر : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ١٦٤ وانظر : هداية الحيارى : ٢٧٩ .

(٢) سورة طه الآية ٥٢ .

(٣) الكشاف ٢/٥٣٩ .

(٤) انظر : حاشية الشهاب ٦/٢٠٦ .

يطيل موسى فى الجواب لكى يصرف أذهان قومه عن التصديق به ، لأنه رأى أن الجواب الموجز يؤدى الى الالزام والافحام كما فى الجواب السابق ، وهذا ما جعله يعدل فى سؤاله عن رب موسى وهارون الى السؤال عن حال القرون الأولى بعد موتهم من السعادة والشقاوة ، وتفصيل أحوالهم تحتاج الى كلام كثير ولكن موسى عليه السلام فى الجواب قابل مكر فرعون واحتياله فى السؤال بمكر أقوى منه وأبلغ فى الافحام أيضا ، فلم يلتفت موسى — عليه السلام — الى حديثه وقال : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ولا يتعلق غرضى بأحوالهم ، فهو جواب على الاسلوب الحكيم ، أى أنه من الغيب الذى استأثر الله به ، وانما أنا عبد مثلك لا أعلم منه الا ما أخبرنى به ، وهو فى كتاب مثبت فى اللوح المحفوظ ، وقوله تعالى : « لا يضل ربى ولا ينسى » « تكميل أو احتراس لدفع ما قد يتوهم من أن اثباتها فى اللوح المحفوظ لاحتياجه اليه لاحتمال خطأ أو نسيان والله تعالى منزه عنه ، وانما يثبت معلوماته سبحانه فى اللوح المحفوظ ليطلع عليها الملائكة »(٢)

وعلى ما قررناه يكون جواب موسى عليه السلام مطابقا لسؤال فرعون فى المعنى، لتأديته المطلوب بأوفى عبارة وأوجزها

ويرى ابن القيم أيضا أنه سبحانه قد استطرد من جواب موسى — عليه السلام — وهو قوله : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » الى قوله : « الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به

---

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »(١) ثم عاد الى الكلام الذى استطرد منه فقال : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى »(٢) .

ونظيره فى المطابقة المعنوية قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا »(٣) .

فان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤال تعجيز وتغليط لكون الروح تطلق على أشياء كثيرة فقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح المسئول عنه فى الآية على أقوال الأول : روح الانسان . الثانى : روح الحيوان . الثالث جبريل ، الرابع : عيسى - عليه السلام - الخامس : القرآن ، السادس الوحى ، السابع : ملك يقوم وحده صفا يوم القيامة ، وقد وردت هذه المعانى فى القرآن الكريم ، وهى على الترتيب : « فلولا اذا بلغت الحلقوم » أى الروح ، « نزل به الروح الأمين » « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » « يلقى الروح من أمره » « وأيدهم بروح منه » «يوم يقوم الروح والملائكة صفا» فالأول : روح الانسان والثانى : جبريل ، والثالث القرآن ، والرابع : الوحى ، والخامس : القوة ، والسادس والسابع محتمل لجبريل ولغيره ، ووقع اطلاق روح الله على عيسى

---

(١) سورة طه : من ٥٣ الى ٥٥ .

(٢) سورة طه الآية ٥٦ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٨٥ .

وانظر : التبيان : الموضع السابق .

عليه السلام ، وعلى ضوء هذا التفسير فى المراد من الروح سأل اليهود عن الروح على اطلاقها فهو سؤال عام غير محدد ، وكانوا يضمرون من ورائه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ان أجابهم بأى شىء مما ذكر من معانى الروح قالوا ليس هذا المراد فرد الله كيدهم وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجيبهم جوابا مجملا مطابقا لسؤالهم المجمل(١) •

ونعود الى بيان وجه تنظير آية « الزخرف » بآية « طه » فنقول : ان موسى عليه السلام قال فى جوابه عن سؤال فرعون « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » وهذا هو كلام موسى قد انتهى ، ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات انعامه على خلقه بقوله : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »(٢) •

على نحو ما بينا فى آية الزخرف وقيل : ان موسى عليه السلام سمع هذه الكلمات بعينها من الله تعالى فأدرجها فى كلامه فيكون من باب الاقتباس • وعلى هذا الوجه يرد سؤال وهو : هل يكون التفات فى كلام متكلمين ، وهما موسى ورب العزة والجواب : أن الالتفات لا يكون الا فى كلام متكلم واحد ، ولذلك قال بعضهم(٣) انه ليس التفاتا ، وانما هو انتقال من حكاية الى انشاء خطاب •

---

(١) انظر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/٢٥٤ ، ٢٥٦ (كتاب التفسير) •

(٢) سورة طه الآية : ٥٣ •

(٣) الانتصاف لابن المنير ٢/٥٤٠ •

وعلى هذا التأويل ينبغي للقارىء أن يقف وقيفة عند قوله « ولا ينسى » ليستقر بانتهاء الحكاية ، أو أن يجعل قول موسى من باب قول خواص الملك أمرنا وعمرنا ، وانما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات أيضا ·

والذين جعلوه التفاتا قالوا(١) : ويحتمل : أن موسى عليه السلام وصف الله تعالى بهذه الصفة على لفظ الغيبة وقال « فأخرج به أزواجا » فلما حكاه الله عنه أسند الضمير الى ذاته فقال : « فأخرجنا » ، لأن الحاكي هو المحكي عنه فمرجع الضميرين واحد ، وقد رجح هذا الوجه الطيبي فقال : هذا الأخير له وجه ، لأنه اذا نظر الى أن الله تعالى حكى عنه وغير العبارة يكون التفاتا ، واذا نظر الى أن موسى عليه السلام سمع هذا الكلام بعينه من الله تعالى فاقتبسه وأدرجه في كلامه كان التفاتا أيضا ·

ثم يقول الطيبي : ونحوه في الادراج قوله تعالى في الزخرف : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ·· الى قوله والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون »(٢) ·

وفي قوله الأخير نظر ، لأن آية « طه » تختلف عن آية « الزخرف » من حيث صدور الجواب عن السؤال ، فالجواب

---

(١) انظر : تحفة الاشراف في كشف غوامض الكشاف ورقة ٥٨٤ ·

(٢) انظر فتوح الغيب للطيبي ٣/٣٥ أ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥ تفسير ·

فى آية طه صدر من موسى عليه السلام ، وفى آية الزخرف وقع من المشركين بدلالة السياق ، وبناء على هذا فان الادراج قد يكون ممكناً فى آية طه ولكنه غير ممكن فى آية الزخرف ، لأن موسى عليه السلام اصطفاه الله بكلامه ورسالته فمن الجائز أن يكون موسى عليه السلام قد سمع هذا الكلام — وهو تتمة جوابه على فرعون — من رب العــزة فأدرجه فى كلامــه ، والمشركون لا يتأتى منهم ذلك • فكيف يكون مدرجا ؟

والصواب ما قررناه فى آية الزخرف من « أن الكلام مجزأ فبعضه من قــول المشركين وهــو « خلقهن » أى الله ، وأصــل الكلام أنهم قالوا « خلقهن الله » يدل عليه اجابتهم فى الآيــات الثــلاث السابقة بذكر الفاعل وحذف الفعــل ، ثم لما قالوا : « خلقهن الله » وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات ، ولما سيق الكلام كله سياقة واحدة حذف الموصوف من كلامهم ، وأقيمت الصفات المذكورة فى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد»(١) ولذلك كان لابد من ذكر الفعــل على الرغم من وجــود ما يدل عليه فى السؤال ، وليس التقرير به وانما التقرير بالفاعل ، وقد قام مقامه الصفات التى أجريت عليه ســبحانه ، ولو حذف الفعل لترتب على ذلك حذف جوابهم الذى أقروا به ، وحــذف الجواب كله من غير دليل عليه غير مستقيم •

ويرى السمين الحلبى أن قوله تعالى «خلقهن العزيز العليم» كرر الفعل فيه للتــوكيد ، اذ لو جاء « العــزيز » بغير خلقهن لكان كافيا ، كقولك من قام فيقال : زيد ، وفيها دلالة على أن الجــلالة الكريمة من قوله : « ولئن ســألتهم من خلقهم ليقولن

---

(١) الانتصــاف ٣/٤٧٩ •

الله ، مرفوعا بالفاعلية لا بالابتداء للتصريح بالفعل فى نظيرتها ، وهذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى، اذ لو جاء على اللفظ لجىء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال(١) .

وقد يقتضى المقام اعادة ذكر الفعل فى الجواب لكون الفعل أمرا معنيا به اذ هو مدار الاستبعاد والانكار فى السؤال كما فى قوله تعالى :« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه وقال : من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » احتج سبحانه بالابداء على الاعادة وبالنشأة الأولى عن النشأة الأخرى اذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه ، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز ، فان الذى حول النطفة انسانا قادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا ، وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت وآثر الكافر ذكر العظام على سائر ما فى الجسم من اللحم والدم والعروق وغيرها لأن العظم أبعد عن الحياة ، ولأن به قوام الجسم، ثم وصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت ولما كان المقام مقام انكار واستبعاد من الكافر الملحد فأنه سبحانه يزيدهم ايضاحا وبيانا لطبيعة القدرة الالهية الخالقة لتأكيد أمر البعث بحجة قاهرة وبرهان ظاهر فى مرأى العين وكأن الملحد الكافر عاد ليسأل سؤالا آخر فقال : العظام اذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة ، وكان جوابه سبحانه عن هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل

---

(١) الدر المصون ٦/٩٢ .

والجواب معا ، فقال : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نـاراً فاذا أنتم منه توقدون » ومن ثم فصل الجواب للاستئناف البيانى المعروف عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال ، وقد تضمن جوابه سبحانه اخراج هذا العنصر الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذى يخرج الشىء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصى عليه هو الذى يفعل ما أنكره الملحد ، فكان جوابه سبحانه مطابقا فى المعنى لسؤال الملحد .

ثم أكد أمر البعث ثانية بأخذ الدلالة من الشىء الأعظم على الأيسر والأصغر وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حمل قنطار مثلا فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا فقال تعالى : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » فأخبر سبحانه أن الذى أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما »(١)، وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيى عظاما قد صارت رميما فيردها الى حالتها الأولى كما قال فى موضع آخر : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (غافر : ٥٧) .

وفى قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام «اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » أتوا فى الجواب بالتصريح بالفعل ليعطفوا عليه قولهم « فنظل »

(١) انظر : الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٤٧٤ ، ٤٧٥ .

افتخارا بذلك وابتهاجا به ، والا فكان قولهم : أصناما كافيا كقوله تعالى : « قل العفو » وقوله : « أنزل خيرا »(١) .

حذف جملة السؤال :

يتأتى تقدير جملة السؤال بأن تكون كالمحذوفة عندما يكون بين الجملتين شبه كمال اتصال ، ويتحقق بجعل الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، فتنزل الأولى منزلة السؤال ، فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال الواقع ، كما فى قوله تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر »(٢) ، وقوله تعالى : « وما أدراك ماهيه نار حامية » ، فالسائل والمجيب هو رب العزة سبحانه وتعالى فهو وحده أعلم بكنه الجواب ، وهو وحده أعلم بالجزاء العظيم المضاعف لمن قام ليلة القدر خالصا لله . وذلك لما بين السؤال والجواب من شدة الاتصال والربط الذاتى المنافى للعطف .

ولذلك يقول الامام عبد القاهر : واذا استقريت وجدت هذا الذى ذكرت لك من تنزيلهم الكلام اذا جاء بعقب ما يقتضى سؤالا منزلته اذا صرح بذلك السؤال كثير(٣) .

وشبه كمال الاتصال من مواضع الفصل بين الجملتين ، وهو الذى يسمى بالاستئناف البيانى الذى يتحتم فيه أن يكون

(١) الدر المصون ٥/٢٧٦ .

(٢) سورة القدر الآية ٣ .

(٣) دلائل الاعجاز : ٢٤١ .

جوابا عن سؤال أثارته الجملة الأولى بخلاف الاستئناف النحوى الذى يبتدأ به الكلام من غير تقدير سؤال ، لأنه لو قـدر لكان المتبادر أن يؤخذ من فحوى ما قبله ، فتقديره غير قائم لانقطاع الكلام بالاستئناف النحوى عما قبله . أما الاستئناف البيـانى فهو استئناف جواب عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى .

والاستئناف البيانى أو شبه كمال الاتصال كثير فى القرآن كما صرح عبد القاهر بذلك ، فلنأخذ منه أمثلة فقط فى هـذا المقام ، لأن الحصر والاستقصاء لا يتسع له هذا البحث المحدود من ذلك قوله تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »(١) .

يقول الزمخشرى : فان قلت : لم قطعت قصة الكفـار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم » وغيره من الآى الكثيرة ؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ، لأن الأولى فيمـا نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هـدى للمتقين ، وسـيقت الثانية ، لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت ، فبين الجملتـين تبـاين فى الغرض والاسـلوب ، وهما على حد لا مجـال فيه للعـاطف(٢) .

يفهم من كلام الزمخشرى أن الغرض الأساسى فى الـكلام السـابق على ذكر الكفـار ليس المقصـود به « الذين يؤمنون بالغيب » ... الخ حتى يشبه بهذه الآية التى حسن فيها الوصل،

---

(١) سورة البقرة الآية ٦ .
(٢) الكشـاف ١٤٩/١ .

وانما الغرض هو بيان بلوغ الكتاب غاية الكمال فى الهداية تقريرا لكونه يقينا لا مجال فيه للشك ، وتحقيقا لكونه ذلك الكتاب الكامل فى جنسه المتحدى باعجازه(١) ، والحديث عن الذين كفروا لبيان اصرارهم على الكفر وتماديهم فى الضلال بحيث لا يجديهم الانذار فهو أى الانذار وعدمه سواء ، ثم ان الكلام السابق الخاص بوصف المتقين بقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب »... الخ الآيات مستأنف أيضا استئنافا بيانيا لكونه جوابا عن سؤال منبثق عن الحديث عن الكتاب الكامل فى هدايته على وجه التقرير ، وذلك أنه لما قيل : هدى واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول : ما بال المتقين مخصوصين بذلك فوقع قوله : «الذين يؤمنون بالغيب »... الخ الآية جوابا عن هذا السؤال المقدر، وهكذا تولد الحديث عنهم مما سبقه فكان ذلك ادراجا له فى حكم المتقين وتابع له فى المعنى ، ولما كان قوله تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ... الآية » لا يصلح أن يكون امتدادا للجواب السابق قطع عما قبله على الاستئناف البيانى أيضا لأنه ينتج أو يتولد من الجواب السابق سؤال آخر وهو : ما بال المتقين مخصوصين يكون الكتاب هدى لهم دون من عداهم ؟ وقوله تعالى : « ان الذين كفروا ... الآية » وقع جوابا لهذا السؤال المقدر الذى انبثق من الجواب السابق أى لأن الكفار المصرين لا ينتفعون بهداية الكتاب الذى بلغ الدرجة القصوى فى الكمال ، بل مستو عليهم وجود الكتاب وعدمه ، أما المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات فهم أحقاء بهداية

---

(١) انظر : حاشية السيد الشريف على الكشاف ١٤٩/١ .

الكتاب فصاروا مختصين بالفلاح عاجلا وآجلا دون من عداهم ، وهكذا نجد أن المعانى تتوالد ويبنى بعضها على بعض ، فيبنى منها ثان على أول ، وثالث على ثان بواسطة الأسئلة المقدرة التى تثيرها الجمل السابقة على الأجوبة المذكورة، فيتم الترابط بين الجمل والتناسق بحيث تأخذ كل جملة منها بحجز الأخرى فى نظم بديع كسلسلة متصلة الحلقات أو كشجرة تمتد جذورها فى الأرض ثم تنمو فتكثر فروعها وتتآزر لتكون وارفة الظلال شهية الثمار .

ومنه قوله تعالى : « ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع »(١) فقوله : « تولوا ... الآية » جواب عن سؤال مقدر أثارته جملة : « لا أجد ما أحملكم عليه » وتقدير السؤال : ما كان حالهم اذ أجيبوا بهذا الجواب فأجيب بقوله : « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع .. » وقوله تعالى أيضا بعد هذا الجواب « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » مستأنفة بعد جملة « انما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء » فهذه الجملة أثارت سؤالا وهو « ما بالهم استأذنوا فى القعود وهم قادرون على الجهاد ؟ » فأجيب بقوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » أى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف(٢) .

ويرى الزمخشرى أن الاستئناف من الوصل الخفى التقديرى وهو أقوى من الوصل بحرف ظاهر موضوع له يقول : عند تفسير قوله تعالى : « ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل

---

(١) سورة التوبة : ٩٢ .

(٢) راجع الكشاف ٢/٢٠٨ .

سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه »(١) : فان قلت أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها فى « سوف تعلمون » ؟ قلت ادخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت على مكانتك ؟ فقيل : « سوف تعلمون » فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة البلغاء من العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من علم البيان تتكاثر محاسنه(٢) .

ومن الاستئناف البيانى كل ما جاء فى القرآن الكريم بلفظ « قال » مفصولا عما قبله غير معطوف ، فانه يكون على تقدير السؤال والجواب كالذى يجىء فى قصة فرعون — عليه اللعنة — مع موسى — عليه السلام فى الحوار الدائر بينهما عن طريق السؤال والجواب كما بينا سابقا فى قوله تعالى : « قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ... الخ الآيات »(٣) .

يقول الامام عبد القاهر(٤) : « جاء ذلك كله — والله أعلم — على تقدير السؤال والجواب ، كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين فلما كان السامع منا اذا سمع الخبر عن فرعون بأنه

(١) سورة هود الآية ٩٣ .
(٢) الكشاف ٢/٣٨٩ .
(٣) سورة الشعراء من آية ٢٣ الى آية ٢٩ .
(٤) دلائل الاعجاز ١٥٨ ، ١٥٩ .

قال : وما رب العالمين ؟ وقع فى نفسه أن يقول : فما قال موسى له ؟ أتى قوله : « قال رب السموات والأرض ٠٠٠ » فأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف ، وهكذا التقدير والتفسير أبدا فى كل ما جاء فيه لفظ « قال » هذا المجىء » ٠

وفى اضمار هذه الأسئلة وترك الافصاح عنها ضرب من الايجاز والاختصار اعتمادا على ما تقرر فى العرف العربى ، وما يقع فى نفوس الناس من الأسئلة المختلجة فى خواطرهم ، ولو ذكرت الأسئلة فى هذا الحوار وبسطت لرأينا كل جملة واقعة جوابا تسبقها جملة أخرى واقعة سؤالا لهذا الجواب مما يؤدى الى الاطالة هذا بالاضافة الى كثرة الأسئلة الناتجة عن الأسئلة التى كانت مقدرة وذكرت التصريح بلفظ الجواب ٠

السؤال والجواب مرتبطان ببعضهما أشد الارتباط ومن ثم يجىء الجواب عقيب السؤال بدون عاطف لشدة الاتصال بينهما ، ولكنه لوحظ أن لفظ الجواب قد صرح به فى النظم القرآنى قبل ذكر الجواب وذلك فى أربعة مواضع ثلاثة منها فى قصة واحدة وهى قصة لوط عليه السلام – فى جواب قومه له حين يدعوهم الى الايمان ، وواحد فى جواب قوم ابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : «فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار »(١) ، وذلك يعد كلام مستفيض فى دعوة ابراهيم قومه الى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان ، وذكر الادلة على وحدانية الله وقدرته فى ملكوته ، وقدرته فى بدء الخلق واعادته فى الآخرة ٠٠ بقى

---

(١) العنكبوت الآية ٢٤ ٠

الأمر بعد ذلك من جانبهم فى الاجابة عما دعوا اليه ، أو الاتيان بمـا يصـلح أن يكون جوابه ، فلم يأتوا الا بقولهم : « اقتلوه أو حرقوه » وهـذا لا يصـلح أن يكون جوابا عمـا كلمهم به ابراهيم ـ عليه السلام ـ من الدعوة الى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام ... الخ ، فجاءوا بشىء آخر لا يتعلق بكلامه، وهو الأمر بقتله أو احراقه بالنار ، وهذا هو السر فى التصريح بلفظ جوابهم تعجبـا منه واستنكارا واستخفافا بعقـولهم . يقول الرازى : كيف سمى قولهم : « اقتلوه » جوابا مع أنه ليس بجواب ؟ والجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر، كما يقول الملك لرسول خصمه : جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب ، وانما معناه : لا أقابله بالجواب ، وانما أقابله بالسيف ، فكذلك قال : لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه(١) .

الثانى : هو أن الله أراد بيان ضلالتهم ، وهو أنهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنه لم يكن لهم جواب أصلا ، وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه، وقولهم : « اقتلوه أو حرقوه » انما هو قول الرؤساء للأتباع لأن الجواب لا يباشره الا الرؤساء الأكابر ، والقتل أو الاحراق لا يباشره الا الأتباع وأما المواضع الثلاثة الأخرى التى صرح فيها بلفظ الجواب فقد وردت فى قصة لوط ـ عليه السلام ـ

---

(١) التفسير الكبير ٢٧٢/١٢ .

مع قومه فى مواطن متفرقة من القرآن • الأول فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : « ولوطا اذ قال لقومه : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون • وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون » •

فالاستفهام فى قوله تعالى : « أتأتون » انكارى توبيخى، واتيان الفاحشة كناية عن عملها ، والفاحشة : الفعل الدنىء الذميم ، ويلاحظ أن الله عز وجل نكر الفاحشة فى الزنا فقال تعالى : « انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » أى أن الزنا فاحشة من الفواحش ، وعرفها فى اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد، أى زيد الجامع لمعانى الرجولية ، أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم الى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى : « وفعلت فعلتك التى فعلت » • أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ، ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » فزاد فى توبيخهم بهذه الجملة ثم يتصاعد التوبيخ فى أسلوب مؤكد لبيان مدى فحش هذه الفعلة الشنعاء بأن صرح بما تشمئز منه القلوب ، وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو اتيان الرجل رجلا مثله ينكحه كما تنكح الأنثى ، فقال : « انكم لتأتون الرجال » ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس الا مجرد الشهوة لا الحاجة التى مال لأجلها الذكر الى الأنثى من قضاء الوطر ومن

لذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لهـا أبويهـا وتذكر بعلها ، وحصـول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب وقيام الرجـال على النساء ، ومكاثرة النبى — صلى الله عليه وسلم — الأنبيـاء بأمته الى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التى فى اللـواط تقاوم ذلك كله وتربى عليه بما لا يمكن حصر فساده ولايعلم تفصيله الا الله . ثم بين أن فى اللواط عكسا للفطرة الانسانية والطبيعة البشرية فهم قلبوا فطرة الله التى فطر الناس عليها، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور فأتوا الرجال شهوة من دون النسـاء ، ولهذا قلب الله — سبحانه — ديارهم فجعـل عاليها سافلها ، وكذلك قلبوا هم ونكسوا على رؤسهم فالجزاء من جنس العمـل ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حـكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات والدوام أى أنتم قوم تمكن منهم الاسراف فى الشهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة ، فهم قد تمادوا فى ارتكاب الفاحشة التى تجلب عليهم أضرارا بالغة .

ولما أنكر عليهم لوط — عليه السلام — هذا الفعل القبيح غاية الانكار بواسطة الاستفهام الانكارى يليه الأسلوب الخبرى الذى يكشف عن مدى قبح فعلهم هذا ، كان مقتضى جوابهم أن يرعووا ويكفوا عن هذا الفعل القبيح ، أو على الأقل أن يجيبوا

عما قيل لهم ولكنهم تركوا الجواب عن ذلك وجاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم ، وهذا هو السر فى التصريح بلفظ الجواب لانكاره والتعجب منه والاستخفاف من عقولهم التى ألغوها لتماديهم فى شهواتهم البهيمية ٠٠ وقولهم : « انهم أناس يتطهرون » علة للأمر بالأخراج ، والمراد بالتطهر : تزكية النفس والحذر من الرذائل وتلك صفة كمال لكن القوم لما تمردوا على الفسوق والعصيان وألفوا ذلك فى سلوكهم كانوا يعدون الكمال منافرا لطباعهم فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال ، فهم كما قلبوا فطرة الله فيهم وعكسوها قلبوا الحقائق أيضا ، وصار الشر والفحش عندهم فضيلة ، والخير والتطهر عندهم رذيلة ، ولذلك فان وصف آل لوط بالتطهر يحمل معنى التهكم والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش كما يفعل أهل الفجور والعصيان الذين استمرءوا فجورهم وفسقهم وألفوه مع أهل الصلاح والتقوى ٠ ولما رأوا أن هذا التطهر من خلق لوط _ عليه السلام _ وأهله جيء بالخبر جملة فعلية مضارعية كدلالتها على أن التطهر متكرر منهم ومتجدد ، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم(١) ٠

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٣١ ٠

ونلاحظ أنه فى هذا الموضع عبر بلفظ السرف والاسم ، وفى النمل بلفظ الجهل والفعـل ، تكثيرا للفـائدة ونوعا من التفنن فى التعبير عن المراد بلفظين متساويين معنى اذ كل سرف جهل وبالعكس ورعاية للفواصل فى التعبير بالاسم والفعـل ، اذ الفواصل هنا فى الأعراف أسماء وهى: العالمين ـ المرسلين ـ الناصـحين ... الخ .

وفى النمـل أفعال وهى : يعلمون ـ يتقون ـ يبصرون ، فناسب الاسم هنا والفعل ثم(١) .

وليس كل استفهام أو سـؤال يذكر معه الجواب ، فكثيرا ما ترد الاستفهامات التقريرية أو الانكارية أو التعجبية أو غير ذلك ولا يذكر لهـا جوابهـا ، لكونه ـ أى الجـواب ـ ملزما للمستفهم عنه ، فلا يسـتطيع أحد أن يكابر أو أن يعـاند ، ولأن الجواب معلوم من السياق ، فتتوالى الاستفهامات المشتملة على جمل سريعة الايقاعات تلجم الكافر المعاند الجاحد بالحقائق الصادعة وذلك فى قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنـون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقـولون تقوله بل لا يؤمنون فليـأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبـين ؟ أم له البنات ولـكم البنون ؟

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ١٩٩ .

أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ؟ أم لهم اله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون »(١) ٠

فالاستهامات فى هذه الآيات متوالية فى ايقاع سريع قوى تدحض كل حجة ، وتكشف عن كل شبهة ويقف القوم أمام الحقيقة مجردين من كل عذر ، عندئذ يقدمهم على حقيقته معاندين مكابرين يمارون فى الحق الواضح ٠

وكثير من الاستفهامات فى القرآن الكريم ترد ولا يذكر لها جواب لكونها من الأمور المقررة عقليا والتى لا يمكن أن يمارى فيها أحد فهى ملزمة للمخاطبين ، فجوابها معلوم من السياق ٠

---

(١) سورة الطور ١٩ - ٤٣ ٠

الفصل الخامس

التشويق بالسؤال الى الجواب

اسلوب التشويق بواسطة الاستفهام أسلوب بلاغى يلامس الوجدان ويثير النفس لتتنبه لمعرفة الجواب وهو وسيلة ناجحة فى مجال الترغيب والترهيب ، فان النفس اذا طال شوقها الى الجواب فعندما يلقى اليها فانه يتمكن منها أيما تمكن ، وجاء الاستفهام ب « هل » أكثر من غيرها ، والأفعال التى دخلت عليها هى : أنبىء - أدل - أتاك - ترى - ولا شك أن الأمور المستفهم عنها بطريق التشويق هى أمور هامة وخطيرة مثال ذلك قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ »(١) فالأخسرون أعمالا هم الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسرانا ، وقد تدرج النظم القرآنى فى بيان الأخسرين أعمالا حيث ذكر صفتهم بعد السؤال عنهم ، وهى أن سعيهم فى هذه الحياة مادام على هذا النحو من عدم الارتكاز على الايمان الصادق بالله وحده والايمان برسوله صلى الله عليه وسلم فهو سعى ضال خائب لا قيمة له ولا ثمرة ترجى منه ، فهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، وهم ينفقون حياتهم فيه هدرا ، وبعد بيان صفتهم تتطلع النفس الى جنسهم من هم؟ ويأتى الجواب بعد هذه الاستثارة والتطلع فيكشف عنهم أتم كشف ، فى جملة مفصولة عن جملة السؤال « أولئك الذين

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٣ .

كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » ، وهذا الفصل الظاهر هو الوصل بعينه للارتباط الوثيق بين السؤال والجواب .

وفى قوله تعالى : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل »(١)

هذه الآية جاءت بعد الحديث عن أهل الكتاب وسخريتهم من الاسلام وشعائره كما فى قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » لاعتقادهم أن الاسلام شر محض لدعوته الى الايمان بالرسل ومنهم عيسى عليهم السلام ، واسم الاشارة فى قوله تعالى : « هل أنبئكم بشر من ذلك » يعود الى نقمة أهل الكتاب على المسلمين وما يكيدون لهم ، وما يؤذونهم بسبب ايمانهم ،المفهوم من الآية السابقة فى قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ... الآية »(٢) وقد يعود اسم الاشارة على المنقم بفتح القاف وهم المسلمون ، وعلى هذا يكون المسلمون الموصوفون بذلك الدين محكوما عليهم بالشر ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، فيكون الكلام من باب الاستدراج ومجاراتهم على حسب قولهم واعتقادهم فانهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقيل لهم : هب أن الأمر كذلك ، ولكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك(٣)

---

(١) سورة المائدة ٦٠ .
(٢) سورة المائدة ٥٩ .
(٣) مفاتيح الغيب للرازى ٧٣/٦ .

ثم قيل : « مثوبة » وهى منصوبة على التمييز ، ومن المعلوم أن المثوبة مختصة بالاحسان فكيف جاءت فى الاساءة ؟ قيل : هذا من باب التهكم وهو استعمال الضد فى ضده على المجاز وهو الاستعارة التهكمية ، على طريقة قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » وكقول الشاعر :

● تحية بينهم ضرب وجيع ●

ويسميه بعضهم العكس فى الكلام · وعلى الرغم من وجود سؤال التشويق والاثارة فان النفس تستشرف لمعرفة من هم شر من المسلمين على حد قولهم ، فكأنها تساءلت : من هم ؟ فقيل فى الجواب « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » ، وعلى هذا تكون جملة السؤال مثيرة فى صياغتها من حيث ان التشويق الذى تضمنته داخل فيما يراد نقيضه تهكما وسخرية كجعل الخير شرا والعقوبة مثوبة ، ثم انصب عليهم الأسلوب كقطع العذاب اهانة وجزاء وفاقا ، وتعبيرا لجنسهم فهم فى الاثم سواء ثم تحقيق الشر بالكناية المصورة فى قوله تعالى : « أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » ، فقد أضيف الشر فى اللفظ الى المكان وهو فى الحقيقة لأهله ·

ونلاحظ فى الجواب مدى تطابقه مع السؤال حيث عدل عن الاسم الظاهر الى اسم الموصول لبيان صفاتهم القبيحة بجملة الصلة فهم الملعونون والمغضوب عليهم ثم مسخهم فى صورة أخس المخلوقات قردة وخنازير وعبدة الطاغوت كل هذا يتناسب مع سؤال التشويق والاثارة والتهكم والسخرية بالتعبير عن الضد بضده ·

وفى قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير »(١) .

فالمقام هنا هو مقام غضب وغيظ وحنق على المسلمين الذين يتلون عليهم آيات الله ، وقد دل على هذا الانفعال الداخلى من الغضب والغيظ بما يظهر على وجوههم من تقطيب الوجه ، وتلونه ، وكأنك تقرأ فى وجوههم أمارات الانكار ، ويتصعد الانكار الذى يرى فى وجوههم من عبوس الوجه وتقطيبه وتجهمه ، الى مقاربة البطش بالمسلمين واستعدادهم للوثب الجامح والبطش الأعمى والثورة النفسية الحرقاء على من يتلو القرآن عليهم ، ويأتى الرد على هذا الموقف الحركى المثير أقوى وأعنف فى صورة استفهام يحمل معنى التشويق والاثارة وهو قوله تعالى : « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم » أى بشر من ذلكم المنكر الذى تنطوون عليه ومن ذلك البطش الذى تهمون به وهذا السؤال يتركهم فى قلق نفسى مثير ، فلم ينتظروا الاجابة وانما بادروا الى السؤال فكأنهم قالوا : ما الذى هو شر فقيل : هو النار . يبادر القرآن الى ذكر هذه اللفظة الراجفة الهائلة يذكرها لفظة واحدة مفيدة لحذف ركنها الآخر وهو المسند اليه « المبتدأ » لأنه معلوم من السياق ، والمشهور قراءة الرفع ، وقرئت بالنصب على اضمار فعل تقديره : أعنى ، وقرىء بالجر على البدل من « شر » .

---

(١) سورة الحج آية ٧٢ .

وهذا الجواب فى غاية المطابقة والمناسبة لبطشهم وسطوتهم بالمسلمين الذين يتلون القرآن ، فاذا كان غضبهم المتلمظ ـ على المؤمن قطعا من نار على المجاز فالجزاء هو النـار الحقيقية المعدة لهم على الدوام ، ونلاحظ فى التعبير بقوله : « فى وجوه الذين كفروا » وضع المظهر موضع المضمر لتسـجيل الشهادة عليهم بالكفر •

وفى مقامات الرضا والسرور بالتشويق الى ذكر ما أعد للمؤمنين من النعيم المقيم نجـد قوله تعـالى : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » أى متع الدنيا التى ذكرت فى الآية السابقة ، وهى قوله تعالى : « زين للنـاس حب الشـهوات من النسـاء والبنين ••• الخ الآية »(١) •

وقد انتقل من أسلوب الغيبة فى قوله تعـالى : زين للناس الى أسلوب الخطاب فى السؤال فى قوله تعالى : « قل أؤنبئكم » تشريفا لهم ـ على الالتفـات ـ لكى يلتفتوا الى ما أعـد لهم من النعيم العظيم الذى هو خير لهم وأبقى ، ويتشوقوا الى الجواب الذى ينبئهم بمتاع الآخرة ، فالمولى عز وجل لم يرد أن يخبرنا مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، وانما أراد أن يقرر لنا نبأه العظيم فى صيغة سؤال أينبئنـا به أم لا ؟ انه سـبحانه يلفت انتباهنا ويوقظ مشاعر الاحساس الكامنة فى نفوسنا فنتطلع الى الجواب ونتشوق اليه ولم ينتظر المولى عز وجل منا أن نقول له نعم قل لنا يارب ، لانه سـبحانه يقول لنـا دون طلب منا ، فالانسان حين يسمع « أؤنبئكم بخير من ذلكم » ينشـغل ذهنـه

---

(١) سـورة آل عمران آية ١٤ .

بهذا النبـأ ويظل الذهن مستشرقا ومتطلعا الى سـماعه فيظـل الذهن مشغولا بالنبأ ومن ثم يأتى الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن ، ويأتى مطابقا لسؤال التقرير والتشويق ويبدأ بقوله : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» يشير المولى عز وجل بوصف المؤمنين بالتقوى الى أن متاع الدنيا الذى أحله الله لنا يجب أن نتصرف فيه على ضوء منهج الله تعالى، فهو سبحانه وان قيد حريتنا فى استمتاعنا بهذه المتع الحسية على ضوء شرعه سبحانه فانه سـبحانه يريد بنا الرقى وتنظيم حياتنـا حتى لا تكون الشـهوة غاية كالحيوانات العجمـاوات ، وانما يريد لنا سبحانه متـاعا أبقى وأدوم انه تصـعيد للخير فمتاع الحياة الدنيا مهما كثر فهو قليل بالنسبة لمـا أعده الله للمؤمنين لأن متاع الدنيا مقيد بالأسباب وهى حركتك فى هذه الحياة لاكتسابه أما متاع الآخرة فانه يأتيك من مسبب الأسباب فالنعم فيها على قدر المنعم ، لاشك أنهـا عظيمة وجليلة ، ونعم ستنتهى بانتهاء الأجل فأنت تفوتها وهى تفوتك ، ونعم الآخرة باقية خالدة لا تفوتها ولا تفوتك ، ونعم الدنيا منغصة بالأكدار والأحزان لأنها لا تستمر على حال واحد ، وانما الأيام دول بين الناس فيوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء بأفعالنا ، ويوم بتلك الفعال نسر .

وفى نظم الجواب معان لطيفة منها تقديم المسند على المسند اليه لافادة القصر أى قصر الجنات وما فيها من النعم والأزواج المطهرة ورضوان الله على « الذين اتقوا » وقد حـذف معمول فعل التقوى ليعم كل تقوى فتشمل التقوى لله بأن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، كما قال تعالى فى آيات كثيرة « اتقوا الله » وتشمل اتقاء النار حتى لا يصاب الانسان بأذى قال تعالى:

« واتقوا النار » وتقوى الله واتقاء النار يلتقيان لأن اتقـاء الله بمعنى الخوف من غضبه وعقابه يورد العذاب بالنار .

والاضافة فى قوله تعالى : « عند ربهم » للتعظيم أى هى عند الرب الأعلى الذى رباهم على موائد فضله وكرمه ، ماذا أعد الرب الأعلى للمتقين ؟ لقد أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ولنر الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا « الحرث » ووصف الزرع بالحرث فيه دلالة على أن الزرع لكى ينمو ويثمر يتطلب منا حركة وجهدا أما فى الآخرة فالجنات معدة للمتقين بلا كد أو تعب ، أنهارها تجرى من تحتها والمتقون مخلدون فى هذا النعيم لا يتركهم ولا يتركونه ، ووصف الأزواج بالمطهرة يشير الى ارتقاء هذا المتاع لأنها مطهرة خلقا وخلقا أما متاع الرجل بالنساء فى الدنيا فانه يطرأ عليه أشياء قد تنفر اما خلقا تكوينيا كالحيض والنفاس ، واما خلقا ، والأزواج المطهرة فى الجنة طهرها الله خلقا وخلقا ، وتظل الأزواج على نضارتها وجمالها الى الأبد ، بخلاف أزواج الدنيا فانهـا بمرور الوقت عندما تكبر فى السن تظهر التجاعيد والترهل فى جسمها .

ونلاحظ أن المولى عز وجل ذكر فى مجال المقارنة بين متع الدنيا ومتـع الآخرة أمرين ، فذكر فى مقابل الحرث جنـات تجرى من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة فى مقابل النساء فى الدنيا ولم يذكر مقارنة بين بقية الأشـياء من القنـاطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والبنين ، لأن هذه الأشـياء التى لم يبـين ما هو خـير منها فى الآخرة مما يقابلها كانت فى الدنيا وسائل لتحقيق متاع ، فأما فى نعيم

الآخرة فلا حاجة الى الوسائل لبلوغ الغايات(١) .

ويرتقى النعيم فى الآخرة برؤية المؤمن ربه فيحل عليهم رضوانه ورضوان من الله أكبر من كل شىء أكبر من ذلك النعيم المادى لأن رضوانه - سبحانه - تقريب روحانى ، وعدل عن الضمير الى الاسم الظاهر فى قوله تعالى : « ورضوان من الله » ولم يقل ورضوان منه أى من ربهم لما فى اسم الجلالة من الايماء الى عظمة ذلك الرضوان (٢) وتذييل الآية بقوله تعالى : « والله بصير بالعباد » لبيان الوعد وأنه على قدر العمل فالله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته فى ربه يكون الجزاء فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة فى الجنة ليأخذها ومن أطاع الله لا لرغبة فى ثواب ولا لرهبة من عقاب وانما أطاعه لأنه أهل لأن يطاع قصد العابد بطاعته وجهه الكريم فقط فاستحق من الله تعالى أن يحل عليه رضوانه فيرتقى فى الجزاء الى غاية النعيم الروحانى فيرى ربه فى عليين(٣) .

وفى قوله تعالى « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » نجد التشويق المثير بعد هل بالدلالة على ما يحبونه ويتمنونه وهو التجارة ، وليست تجارة مطلقة ، وانما هى تجارة خاصة مع الله تعالى انها تجارة رابحة ، ولذلك نكرت التجارة للتعظيم والنوعية فهى تجارة عظيمة من نوع خاص وبعد أن يبلغ الشوق مداه وتتطلع النفوس مترقبة الجواب

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ٣٧٥/١ .
(٢) التحرير والتنوير ١٨٤/٣ .
(٣) راجع تفسير الشعراوى ١٣٣٨/١٧ .

المرموق يجيء فتشرق قلوبهم عند سماع شطره الأول « تؤمنون بالله ورسوله » لتحققه فيهم ثم يترجم هذا الايمان الى واقع عملى ببذل الجهد والطاقة فى نصرة دين الله بالجهاد بالنفس والمال خالصا لوجهه سبحانه « وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » وفى الاستفهام بطريق التشويق فى هذه الآية حث واغراء ولذا لحظ الفراء فيه معنى الأمر لأن الاغراء أمر،كل هذه المعانى تصعد التشويق فى نفس المؤمن وتبلغ به ذروته ، ولا ينتظر المولى ـ عز وجل ـ منهم جوابا ـ فبادر سبحانه بذكر الجواب لتسكن النفس الذى تترقبه و « تؤمنون » فى معنى آمنوا فهو فى المعنى أمر بلفظ الخبر ، والسر فى مجيء الأمر بلفظ الخبر ـ والله أعلم ـ هو الايذان بوجوب الامتثال والمسارعة اليه ، ولذلك جزم «يغفر» جوابا لقوله تعالى « تؤمنون بالله ورسوله » لكونه فى معنى الأمر كما بينا فكأنه سبحانه قال « آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم يغفر لكم »(١) ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه السورة « سورة الصف » اهتمت بالجهاد ونصرة دين الله بل هو غرضها الأصيل،ومن ثم كرر الحث عليه لاقتضاء المقام هذا الحث والتكرير ، لأنه سبحانه يعلم أن النفس البشرية فى حاجة الى هذا التكرار لتنهض بهذا التكليف الشاق الذى يبذل فيه المرء أعز ما يملك نفسه وماله ، كما أن هذا الجهاد أمر ضرورى لنصرة دين الله وتمكينه فى الأرض وحراسته من كيد الأعداء(٢) ٠

---

(١) مفاتيح الغيب للرازى ١٥/٥٢٢ ٠

(٢) انظر فى ظلال القرآن ٦/٣٥٥٩ ٠

والجواب مطابق للسؤال تمام التطابق لأنه تضمن الربح العظيم الذى تشوقت اليه النفس بعدما تشوقت الى كنه هـذه التجارة مع الله تعالى • وربح التجارة عاجل وآجل فأما الآجـل فهو مغفرة الذنوب والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيـم فى الآخرة وأما العاجل الذى تحبه النفس وتؤثره قال تعـالى « كلا بل تحبون العاجلة »(١) وقال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيـا »(٢) •

وهذا هو السر فى ايثار لفظ « تحبونها » وكأن هذا اللفظ فيه معنى التوبيخ على محبة العاجل ، وهو نصرة الله للمؤمنين ، وفتح مكة وفى كل ما ذكر بشرى للمؤمنين •

(١) سورة القيامة الآية : ٢٠ •
(٢) سورة الأعلى آية : ١٦ •

الفصل السادس

أجوبة القرآن الكريم بين الحجب والاجمال والتفصيل

قد يحجب المولى - عز وجل - بعض الأجوبة عن المخلوقين جميعا اما لأن ما سألوا عنه لا تستطيع مداركهم البشرية أن تعرفه أو تبلغ مداه كما فى الاجابة عن سؤال اليهود عن الروح فى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »(١) فالروح من غيب الله تعالى لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشرى ، وقد سبق بيانه ، واما أن يكون الحجب لحكم جليلة يعلمها سبحانه فيكون الجواب بقصر علمها على الله تعالى كما فى السؤال عن الساعة وتكرار وقوعه فى القرآن ، سبق بيان بعضها ، ومنه قوله تعالى(٢) : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها » أى منتهى علمها تفصيلا عن كنهها وكيفيتها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها يرجع الى رب العزة والجلال وحده بأسلوب القصر . وقوله تعالى « فيم » انكار لسؤالهم أى فيم هذا السؤال ، ثم قيل : أنت من ذكراها أى ارسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث فى نسم الساعة ذكر من ذكرها وعلامة من

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٥ .

(٢) سورة النازعات : ٤٢ ، ٤٣ .

علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها(١) .

ففيه بطلان لسؤالهم ، وما بعده مستأنف تعليل للانكار بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « بعثت فى نفس الساعة » وقوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » .

وقد تكون بعض الأجوبة مجملة كما فى قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » فالجواب هنا مجمل مطابق للسؤال ، والنفل والنافلة : ما كان زيادة على الأصل كما سمى التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذى هو الأصل والأصل فى الأنفال المسئول عنها الغنائم ، والسؤال عن الأنفال مبهم ، لأنه لم يحدد أى حكم من أحكام الأنفال ، وهذا الابهام يفسره الجواب فتعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعا عن كيفية مصرفها ومن المستحق لها .

وله نظائر فى النظم القرآنى منهاقوله تعالى : «ويسألونك عن المحيض » [البقرة : ٢٢٢] « ويسألونك عن اليتامى » [البقرة : ٢٢٠] فعلم منه أنه سؤال عن حكم من أحكام الحيض واليتامى ، وذلك الحكم غير معين ، الا أن الجواب كان معينا لأنه تعالى قال فى الحيض « قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض » ، فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان سؤالا عن مخالطة النساء فى المحيض وقال فى اليتامى : « قل اصلاح لهم

---

(١) الكشاف ٤/٢١٩ .

خير وان تخالطوهم فاخوانكم » [البقرة : ٢٢٠] فدل هذا الجواب المعين على أن ذلك السؤال المعين كان واقعا عن التصرف فى مالهم ومخالطتهم فى المؤاكلة(١) .

والاجمال فى الجواب يقتضيه المقام لأن الله عز وجل أعطى رسوله الحكم فى قسمتها والتصرف فيها وحده .

وقد يفصل الجواب أحوال المسئول عنه كما فى قوله تعالى: « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا » ثم بدأ يفصل هذا الذكر المتلو بقوله تعالى : « انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا .. » الآيات من ٨٣ الى ٩٨ من سورة الكهف .

وفى قضية البعث ومواجهة الكفار بها وانكارهم له فى أساليب استفهامية متعددة ، لأنهم قصروا تفكيرهم على ما هو محسوس مشاهد أمامهم ، ولم يعملوا عقولهم فيما خلق الله من المظاهر الكونية الثابتة الدالة على وجود الله أولا وعلى ثبوت البعث ثانيا وذلك فى أطوار خلق الانسان ، وفى احياء الأرض بصنوف النبات ، وفى خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما وغير ذلك ، واجابات القرآن على كل الأسئلة التى ترد من الكفار على سبيل الانكار والتعجب أو التهكم والسخرية حينا آخر ، كانت أشد قوة وأكثر بسطا وتنوعا فلم يترك قضية البعث حتى أقام لها شواهد حسية أو بعثا مصغرا وقد نطقت به الكتب ، وصار فى الناس أحاديث . فأجابات القرآن فى الرد

---

(١) التفسير الكبير ٤٣٠/٧ .

على انكار الكفار بواسطة الاستفهام جاءت مطابقة لمقتضى أحوالهم من الاجمال والتفصيل والتكرار والتوكيد ، مع اشتمالها على الأدلة والبراهين العقلية فتارة يجمل فى بيان هذه الأدلة كما فى قوله تعالى : « أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » ردا على قوله : « أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » فقد طوى فى هذه الاجابة أطوار خلق الانسان اكتفاء بالدلالة على تذكره خلقه الأول من العدم والمعنى : أيقول الانسان ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى فان تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم الى الوجود ، ثم أوقع التأليف مشحونا بضروب الحكم التى تحار الفطن فيها من غير حذو واقتداء بمؤلف ولكن اختراعا وابداعا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته ... هذا بالاضافة الى أن رب العزة سواء عليه النشأتان لا يتفاوت فى قدرته الصعب والسهل ولا يحتاج الى احتذاء على مثال ، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعا فى بحر معاندته وكشفا عن صفحة جهله(١) .

وتارة يفصل فى الدلالة على البعث بذكر أطوار خلق الانسان المعجزة بقوله تعالى : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرزل العمر لكيلا يعلم من

---

(١) الكشاف ٢/٥١٨ .

بعد علم شيئا » فان من قدر على خلق البشر من تراب أولا ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين المـاء والتراب ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما أبداه بل هذا أدخل فى القدرة من تلك وأهون فى القياس واستدل المولى عز وجل بدلالة ثانية على البعث ، وهى مشـاهدة ومعـاينة وهى حال الأرض تكون هامدة أى يابسة ميتة فاذا أنزل الله عليها الماء «اهتزت وربت» أى تحركت بالنبـات وانتفخت وانبتت من كل صنوف النبـات ما يسر الأعين حين تنظر اليه ، قال تعـالى : « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج »(١) ولظهور هذا الدليل كرره الله تعالى فى كتابه الكريم فى مواضع شتى لمواجهة منكر البعث (٢) .

وقد يجىء الجواب بالغ التركيز والايجاز والاعجاز كما فى قوله تعالى « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه » منكرا على من يشك فى البعث أجاب رب العزة بقوله : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » أى نجمعها قادرين على تسويتها بل تسوية أدق الأجزاء فيه بعد تفرقها ورجوعها رفاتا مختلطا بالتراب وبعد ما سفتها الرياح وطيرتها فى أباعد الأرض ، وقد قيل فى المراد من تسوية البنان أقوالا كثيرة أرجحها — على ما يظهر لى — أن المراد تسوية البنان بمعنى ضم سلامياته بعضها الى بعض على صغرها ولطافتها كما كانت أولا من غير زيادة ولا نقصان بل

(١) الحج : ٥ .
(٢) الكشـاف ٣/٦ .

ان قدرته سبحانه وتعالى تصل الى أدق من هذا كما لاحظه بعض المعـاصرين بأن تصل دقة التسـوية فى البنـان أى فى طرفه بخطوطه ودوائره غير المكتملة التى لا تتفق فى اثنين من البشر كما دل على ذلك تحقيق الشخصية بأخذ البصمات ، وهذا أدل على دقة القدرة الالهيـة فى الاعادة قال تعـالى : « كما بدأكم تعودون » ويرى الفخر الرازى أن تقدير الآية بلى نجمعها حالة كوننا قادرين على أن نسوى بنانه فى الابتداء فوجب أن نقدر على تلك التسوية فى الانتهاء(١) فيكون فى الآية حذف اكثار من جملة وفى نهاية السـورة : « أيحسب الانسـان أن يترك سدى » انكار على الانسان أن يظن أنه سيترك سدى أى مهملا لاعبا لاهيا بدون تكليف ولا بعث ولا حساب ولا جزاء ، ويجيب المولى عز وجل مستدلا على البعث بمبدأ الخلق وأطواره المطوى ذكر بعضها من كونه نطفة من ماء مهين ثم تتحول بقدرته الى علقة ثم تتنوع لتصير ذكرا وأنثى .

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٦ .

متفرقات فى مطابقة الجواب للسؤال

ومن مطابقة الجواب للسؤال فى القصص القرآنى مانجده فى قصة سليمان — عليه السلام — مع بلقيس ملكة سبأ عندما جىء بعرشها من سبأ فى أرض اليمن الى بيت المقدس حيث مقر سليمان — عليه السلام — على يد رجل مؤمن على صلة قوية بالله تعالى بما لديه من علم بالكتاب فلما أتى بالعرش واستقر عنده فى بيت المقدس لمست هذه النعمة قلب سليمان — عليه السلام — فجاشت مشاعره فلهج لسانه ونبض قلبه بالاعتراف بفضل ربه عليه الذى يستلزم الشكر الجزيل ، وبعد هذه المفاجأة والانتفاضة نحو شكر المنعم أمر سليمان — عليه السلام — جنده بتغيير معالم العرش المميزة له ليعرف ان كانت فراستها وفطنتها تهتدى اليه بعد هذا التنكير أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ الى معرفته من وراء هذا التغيير ، وتحضر الملكة فى ساحة بيت المقدس فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ انها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال فأين عرشها فى مملكتها ، وعليه أقفالها وحراسها ؟ أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان وكيف جىء به ؟ ومن الذى جاء به ؟ و « أهكذا » تركيب مكون من ثلاث كلمات : حرف التنبيه ، وكاف التشبيه واسم الاشارة ، ودخلت عليه همزة الاستفهام ليتناسب مع مفاجأة الموقف ودقة الاختبار ولذلك أتى فى صيغة السؤال بكاف التشبيه ، فلم يقل أهذا عرشك ، لئلا يكون تلقينا فلا يتم الاختبار ، ولكنه قال : أهكذا عرشك ؟ أى أمثل هذا عرشك ؟ ولما تضمن سؤال سليمان عليه السلام هذا المعنى من التشبيه الذى يدل على شدة فطنة منه عليه السلام ودقة تعبير قابلته فى جوابها بذكاء مثله

ودقة تعبير فقالت : كأنه هو ، ولم تقل هو هو ولا ليس هو وذلك من رجاحة عقلها حيث توقفت فى محل التوقف ، وأتت فى جوابها بالحرف الدال على قوة المشابهة وهو « كأن » لأنه عرشها مع تغيير بعض معالمه · ومن ثم كان الجواب فى غاية التطابق للسؤال فى اللفظ والمعنى والمقام ·

وفى النظم الكريم أسئلة ترد من المنافقين ظاهرها الاسترشاد وطلب الفهم ، وباطنها تحمل معنى الانكار والتمرد والعصيان فيأمر الله رسوله بأن يجيبهم الاجابة المطابقة لما أخفوه فى نفوسهم من النفاق ، ولا يتلقون هذه الاجابة بالتسليم بل يعترضون عليها فى سؤال آخر ظاهره الاسترشاد أيضا ، ولكنه يحمل فى طياته معنى الاعتراض على جواب المولى - عز وجل - على لسان رسوله ، ومن ثم يأمر الله رسوله بأن يجيبهم عن اعتراضهم بجواب يدحض فريتهم ويردهم الى الصواب ويصحح لهم خطأ اعتقادهم لأمر الحياة والموت ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء ، هذه المعانى تتضح فى قوله تعالى « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل ان الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور »(١) ·

---

(١) آل عمران آية ١٥٤ ·

فسؤالهم « هل لنا من الأمر من شيء » يتضمن الاعتراض على خطة القيادة والمعركة ، وان كان ظاهره الاسترشاد، وكأنما دفعوا الى المعركة دفعا ليموتوا ويجرحوا ، دون أن يجنوا من وراء ذلك شيئا ما يعود عليهم بالنفع ، ويحمل هذا السؤال أيضا تقديم الدليل على أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان كاذبا في ادعاء النصرة والعصمة من الله تعالى لأمته ، وهذا استفهام على سبيل الانكار(١) بمعنى النفي كأنهم قالوا ليس لنا من الأمر شيء أي النصر بل لمن أكرهنا على الخروج وحملنا عليه ، وحينئذ يحسن الجواب ويكون مطابقا بقوله تعالى : « قل ان الأمر كله لله» فلا أمر لأحد لا لهم ولا لغيرهم ، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء ، وقد قال الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - « ليس لك من الأمر شيء » فأمر هذا الدين والجهاد لاقامته وتقرير نظامه في الأرض ، وهداية القلوب له كلها من أمر الله، وليس للبشر فيها من شيء ويعرض الله عزوجل مشهدا من مشاهد يوم القيامة حينما يلقى الكفار في نار جهنم فتشتد غيظا وحنقا على الكافرين حتى لتكاد تتمزق من شدة البغض والغيظ وخزنة جهنم تشاركها في هذا الغيظ قال تعالى : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير »(٢) ؟ .

والسؤال في هذا المقام يحمل معنى التأنيب والتوبيخ والترذيل ، وليس أمر من التأنيب والترذيل والتوبيخ للضائق المكروب ويأتي الجواب من الكافرين يحمل معنى الذلة والانكسار والاعتراف بالحمق والغفلة « قالوا بلى قد جاءنا نذير

---

(١) راجع في ظلال القرآن ص ٤٩٦ ، والتفسير الكبير ٥٠٧/٤
(٢) سورة الملك ٧ ، ٨ .

فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا فى ضـلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ·

* * *

وبعـــد :

فهـذا ما تيسر لى بحثه فى هذا الموضـوع ولا أدعى أننى اسـتقصيت كل ما يتعلق بمطابقة الجواب للسـؤال فى القرآن الكريم ، ولكن لعل ما كتب فى هذا الموضوع الذى لم يدرس على هـذا النحو من قبل يكون هاديا ومرشـدا لمن أراد التوسـع فى البحث باستقصـاء كل الآيات التى ورد فيها السـؤال والجواب سواء أكان السؤال خبريا بلفظ يسالونك ، أو كان السؤال انشـائيا بالاسـتفهام الحقيقى أو المجـازى أو بأسـلوب الأمر أو بغير ذلك ·

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله · وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ·

المصادر والمراجع

١ - الأســاليب الانشــائية فى البلاغة العربية للدكتور عبد العزيز أبو سريع مطبعة السعادة ط أولى ١٩٨٩ ٠

٢ - الانصــاف فيما تضــمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير - دار الفكر للطباعة والنشر ٠

٣ - البحر المحيط لابى حيان الأندلسى - دار الفكر للطباعة والنشر والتــوزيع ٠

٤ - بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية - نشر دار الكتــاب العــربى - بيروت لبنــان ٠

٥ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى - مكتبة دار التراث بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ - القاهرة ٠

٦ - التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشــور - الدار التونسية للطبــاعة والنشر ٠

٧ - تفسير الشعراوى - مطبعة دار أخبــار اليوم ٠

٨ - تفسير أبى السعود - دار احيــاء التراث العربى (بيروت) ٠

٩ - تفسير القرطبى - دار الريان للتراث - القاهرة ٠

١٠ - التفسير الكبير للفخر الرازى - نشر دار الغد العربى - القاهرة ط أولى ١٩٩٣م

١١ - تحفــة الأشراف فى كشف غوامض الكشــاف للفاضــــل اليمنى -تحقيق ودراســة للمؤلف مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربيــة بالقــاهرة ٠

١٢ - حاشية الدســوقى على هامش شروح التلخيص ٠

١٣ - حاشية السيد الشريف على المطول ط أحمد كامل ١٣٣٠هـ ٠

١٤ - حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ٠

١٥ — حاشية القطب التحتانى على تفسير الكشـــاف تحقيق د/ ابراهيم طه الجعلى ٠

١٦ — دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التقديم والتأخير والتشبيه والتمثيل للشيخ عبد الهادى العدل ٠

١٧ — الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى — دار الكتب العلمية — بيروت لبنـــان ٠

١٨ — دلائل الاعجـاز للامام عبـد القـاهر الجرجانى تحقيــق وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ٠

١٩ — دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ط أولى ١٩٧٩م ٠

٢٠ — روح المعانى للألوسى — دار احياء التراث العربى — بيروت ٠

٢١ — الصواعق المرسلة للرد على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية ٠

٢٢ — عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص لبهاء الدين السبكى ٠

٢٣ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى — دار الريان للتراث ٠

٢٤ — فتـــح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القــرآن للشـــيخ محمـــد على الصـــابونى ٠

٢٥ — فتـــح الغيب فى الكشف عن قناع الريب للطيبى مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥ تفسير ٠

٢٦ — فى ظلال القرآن لسيد قطب ط دار الشروق ٠

٢٧ — الكتاب لسيبويه — تحقيق عبد السلام هارون ٠

٢٨ — الكشاف للزمخشرى — دار الفكر — بيروت ٠

٢٩ — لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف — القاهرة ٠

٣٠ — مفتاح العلوم للسكاكى — المطبعة الميمنية بمصر ٠

٣١ — مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ٠

فهرس الموضـــوعات

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٣٧٠٨